الباب الخامس

الإدارة والموظفون

obeikandl.com

obeikandl.com

الادارة والموظفون

(١)

الوزير [١]

لم تعرف مصر منصب الوزارة فى عصر الولاة ، وذلك بحكم تبعيتها إلى الخلافة مباشرة. ثم جاء الطولونيون فاتخذوا وزراء لهم تشبها بالخلفاء [٢] . وفى عهد محمد بن طغج الاخشيد ولى الوزارة أبو بكر محمد بن على الماذرائى . وقد مر بنا أن أبا بكر الماذرائى كان فى صحبة الفضل بن جعفر بن الفرات مقبوضا عليه . فلما عاد ابن الفرات من العراق وتوفى بالرملة فى جمادى الأولى سنة ٣٢٧ استدعى الاخشيد الماذرائى وأطلق سراحه ورد اليه الأمور ، وقد كتب المقريزى فى هذا الصدد : « وخلع على ابنه الحسين بن محمد وقلده السيف وألبسه المنطقة ولزم محمد بن على الدراعة وسار إلى منزله وخلفه ابنه بالخلع فعادت الأمور كلها اليه [٣] » . ولكن ابن سعيد يذهب إلى أن رد الأمور إلى الماذرائى لم يكن إلا فى العام التالى. وكتب ابن سعيد فى هذا الشأن. « وفى رجب سنة ثمان وعشرين أطلق الاخشيد أبا بكر محمد بن على الماذرائى واستوزره واستكتب ابنه الحسين بن محمد وخلع عليه وصرفه إلى داره فمشى بين يديه أهل الدولة

---

(١) راجع عن الوزارة فى التاريخ الاسلامى ابن الطقطق : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ١١٠ — ١١١ والماوردى : الاحكام السلطانية ، الماوردى : كتاب آدب الوزير، وابن عبدوس الجهشيارى : كتاب الوزراء، وابن الصيرفى : الاشارة إلى من نال الوزارة ، وخليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك، وابن خلدون : المقدمة (الفصل الرابع والثلاثون فى مراتب الملك والسلطان وألقابها) ص ١٩٧ وحسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١٤٤ و Zaky Hassan : Les Tulunides p. 194 .

(٢) Zaky Hassan : op. cit. pp. 194-195

(٣) المقريزى : المقفى (النص العربى فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٣ — ١٢٤ وابن سعيد : المغرب ص ٢٤

وابنه الحسين خلفه بالخلع ومشى الشريف أبو جعفر مسلم بين يديه حتى حلف عليه فركب . . . . ورد اليه الاخشيد التدبير بمصر والشام والرملة ولبس الدراعة ونزع الطيلسان ، وكان (الاخشيد) لا يصدر إلا عن رأيه ولا يخليه من حضور مجلسه ويقول للناس إذا انصرف « كم قبلت يده ووقفت بين يديه »[١] .

والراجح عندنا أن الماذرائى قدم إلى مصر بعد وفاة ابن الفرات وأن الاخشيد أطلق سراحه ولكنه لم يردّ اليه تدبير الأمور ولم يتخذه وزيرا له إلا بعد أن عاد من حملته الأولى فى الشام لقتال ابن رائق أى فى رجب سنة ٣٢٨

ومهما يكن من الأمر فان هذا النص الذى نقلناه عن ابن سعيد يشير إلى أن الوزير فى مصر عندئذ كان يتميّز بلبس الدراعة ونزع الطيلسان[٢] . ولا عجب فقد « كان الاشتغال فى الدواوين يختلف عن عمل الفقهاء والعلماء كل الاختلاف ، فكان المشتغل بادارة الدواوين هو ممثل الثقافة الأدبية وكان لا يعالج العلوم الشرعية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وثقافته . أما التمايز الظاهرى بينهم فكان يتجلى فى أن الكاتب يلبس دراعة ، على حين أن العالم يلبس الطيلسان[٣] » .

ولما خرج الاخشيد فى حملته الثانية لقتال ابن رائق استخلف على مصر أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج ومعه الوزير محمد بن على الماذرائى[٤] . واستحق الماذرائى فى هذه الفترة تقدير الاخشيد وشكره ، لأنه كان خير عون للحسن بن طغج فى تهدئة أحوال الناس والقضاء على الاضطراب الذى قام بسبب وصول أخبار غير مطمئنة

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥

(٢) كان الوزير العباسى يلبس دراعة وقميصاً ومبطنة وخفا . أنظر هلال الصابى : تاريخ الوزراء ص ٣٢٥ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٤٥ والدراعة قميص مفتوح من الامام إلى موضع القلب ومزين بالزرابر النفيسة والطيلسان شبه طرحة أو شال يلق على الكتفين وعلى الرأس فى بعض الأحيان أنظر Dozy : Dictionnaire détaillé des noms des vétements chez les Arabes pp. 177, 278-280.

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٣٦ نقلا عن المقدسى وياقوت .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩ و ٣٨

من ميدان القتال [١] . ولما عاد الاخشيد من هذه الحملة وقع له مع الماذرائى حادث كان وخيم العاقبة على هذا الوزير . ذلك أن الاخشيد رأى قبل وصوله إلى الفسطاط وفدا بادر إلى لقائه وتوقع أن يكون على رأسه محمد بن على الماذرائى وخشى ألا يترجل هذا الوزير عند ما يصل اليه فأرسل الحسين بن محمد الماذرائى — وكان فى صحبته — ليلقى أباه . وأحس الحسين بما فى نفس الأمير فبادر إلى أبيه وقال له :

« الاخشيد قد قرب منك وقد رآك فاخرج رجلك من الركاب فهو يرض منك بها » فغضب الماذرائى الكبير ورفض أن يترجل أو يخرج رجله من الركاب عند لقاء الاخشيد بل عانقه وهو على ظهر حصانه ، واستاء الاخشيد فأقبل على محادثة كاتبه محمد بن كلا وانصرف عن الماذرائى ، وطلب الأخير إلى غلمانه إخراجه من زحمة الموكب ، وفطن الاخشيد إلى هذا وأراد أن يتجنب حدوثه فاستدعى الماذرائى وسايره . ومما يشهد بعلو مكانة هذا الوزير ما يروى عن قوله ، حين فاتحه ابنه باظهار الترجل للاخشيد : « ذهاب المال أهون على من هذا » [٢] ! ولكن الاخشيد حقد عليه وما لبث أن قبض عليه وعلى ابنه الحسين سنة ٣٣١ هـ .

ومما يستحق الذكر أننا نلاحظ فى ذلك العصر نوعا من الحبس يشبه اعتقال بعض عظماء الرجال فى عصور التاريخ ولا سيما العصر الحديث . فان الاخشيد أعد لاعتقال الماذرائى دارا أسرف فى تزيينها وتأثيثها وزودها بجميع ما يحتاج اليه من ملابس وطيب وطرائف ومآكل ومشارب . ولم يعتقله فيها حتى تأكد من أنه لا ينقصها شىء . وقد سئل الاخشيد كيف عمل هذا كله للماذرائى فقال : « هذا ملك ! وأردت أن لا يحتقر بشىء لنا ولا يطلب حاجة إلا ويجدها ، لأنه ان عجز شىء أحضره من داره ونسقط من عينه » [٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٨

(٢) المرجع نفسه ص ٣٨ — ٣٩

(٣) المقريزى : المقفى (فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٤

obeikandl.com

obeikandl.com

ولا ريب فى أن مادونه المؤرخون من سيرة أبى بكر الماذرائى — على مافيه من مبالغة ظاهرة — يشهد بما جمعه من أموال ضخمة وما كان له من مظاهر الكرم والعطاء والترف . وحسبنا أن نشير إلى مايقال عن إنفاقه على ستين ألفا من الناس فى مكة كل عام وأنه كان يجرى عليهم الرزق من الدقيق والقمح والدراهم . وكان له بمصر من يجرى عليهم مائة ألف رطل من الدقيق فى كل شهر واجتمع له مائة ألف عبد أعتقهم فى طول عمره . وملك بمصر من الضياع الواسعة مالم يملكه أحد قبله حتى بلغ دخل أملاكه أربعمائة ألف دينار فى كل سنة سوى الخراج . وحج إحدى وعشرين حجة « وكان يقال انه ينفق فى كل حجة مائة ألف دينار ويخرج معه تسعين ألف ناقة لنفسه وأربع مائة عربى لجهازه ومؤونته ومعه محامل فيها أحواض البقل ومحامل فيها أحواض الريحان ومحامل فيها الكلاب للصيد .... وكان يحمل إلى الحجاز فى البر والبحر جميع مايحتاج اليه يفرقه هناك : الدنانير والدراهم والثياب والطيب والحلوى والحبوب وسائر الأطعمة والقمح والدقيق والشعير والزيت . ولاينصرف عن الحجاز إلا وجميع من فيه أغنياء »[1] .

* * *

ويبدو أن الاخشيد كان له أعوان آخرون يقومون بأعمال الوزير دون أن يكون لهم لقبه فى بعض الأحيان . وفضلا عن هذا فقد كان الوزير العباسى الفضل بن جعفر يعاون الاخشيد فى الحكم والادارة على الرغم من أن مهمته الأولى التى ندب لها من قبل الخلافة العباسية هى الاشراف على جمع الأموال للخلافة من خراج مصر والشام . والواقع أن الفضل بن جعفر كان سياسيا ممتازا واستطاع بمرونته وكياسته أن يوفق بين عمله مندوبا ووزيرا للخلافة واتصاله بالاخشيد ونصحه له وتفهم وجهة نظره فى الاستقلال الذاتى لمصر . وقيل انه لما توفى الفضل بن جعفر بن الفرات حزن محمد بن طغج حزنا شديدا وكان يتقبل فيه العزاء من الناس .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٣

وبعد وفاة الفضل كتب الخليفة الراضى الى الاخشيد يأمره بانفاذ ابنه جعفر ابن الفضل الى بغداد ليتقلد منصب الوزارة ولكن الاخشيد لم يستطع أن يجيب هذا الطلب . والظاهر أن صلة النسب بين جعفر بن الفضل بن جعفر والاخشيد جعلت الأول يؤثر البقاء فى مصر بعيدا عن جو الدسائس فى بغداد . ومع ذلك فان بنى الفرات كانت لهم مكانة مرموقة فى دار الخلافة فلا عجب إذا نزل الخليفة على إرادة جعفر بن الفضل وأعفاه من الذهاب إلى بغداد وعينه خلفا لأبيه وزيراً للكشف عن أعمال الاخشيد فى مصر والشام [١] . وطبيعى أن عمل جعفر بن الفضل كان مثل عمل أبيه أشبه شيء بعامل البريد من قبل الخلافة أو بعبارة أخرى كان هو وأبوه من قبله مندوبين للخلافة فى مصر والشام يرقبان أعمال الاخشيد ويتجسسان عليه إذا أرادا . ولكن الاخشيد استطاع بسياسته أن يوطد الصلة بهما وأن ينتفع بخبرتهما وبما كان لهما ولأسرتهما من نفوذ فى دوائر الخلافة .

والظاهر أن جعفر بن الفضل بن جعفر كان يعد نفسه مصريا اخشيديا ولم تكن صلته بالخلافة إلا صلة اسمية . فلا عجب إذا اعتبره المؤرخون وزيراً الاخشيديين من سنة ٣٣٤ هـ الى الفتح الفاطمى [٢] . ويعرف جعفر بن الفضل باسم ابن حنزابة . وحنزابة — بكسر الحاء وسكون النون — اسم جدته ويقال انها كانت جارية رومية [٣] . وكان جعفر واسع السلطان فى ادارة مصر على عهد كافور [٤] ولكن نفوذه زاد كثيراً بعد وفاة هذا الأمير حتى استطاع فى عهد أبى الفوارس احمد بن على الاخشيد أن يقبض على نفر كبير من رجال

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٤

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ وياقوت : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٦٣ وما بعدها ، والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ و ٤٥١ ، وأبو المحاسن : ج ٣ ص ٢٩٢ وج ٤ ص ٦

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٩ وابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠

(٤) قيل ان المتنبي نظم فى جعفر بن الفرات قصيدته التى مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

ولكنه لم يظفر منه بالعطاء المنتظر فلم ينشده إياها ، ولما خرج إلى إيران صرفها إلى ابن العميد فأعطاه ثلاثة آلاف دينار . أنظر ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٢ وديوان المتنبي ص ٤٤٣

مصر وأن يصادر أموالهم . وكان من بينهم يعقوب بن كلس الذى استطاع أن يخرج خلسة الى الفاطميين فى افريقية وكان عونا كبيراً فى وضع الخطط لفتح مصر كما سنرى فى نهاية هذا الكتاب .

ولم يكن جعفر بن الفضل موفقاً مع الجند ، فقد عجز عن ارضاء مختلف طوائفهم بعد أن طالبوه بما لا طاقة للحكومة باجابته ، فثاروا عليه ونهبوا داره ودور أصحابه حتى اضطر إلى الاختفاء فترة من الزمن .

ولما قدم الحسن بن عبيد الله بن طغج منهزما من القرامطة فى الشام قبض على هذا الوزير وصادر أمواله وتولى تدبير مصر بنفسه ثلاثة أشهر واستوزر كاتبه الحسن بن جابر الرياحى [١] . ولكنه ما لبث أن أطلق سراح جعفر بن الفضل بوساطة الشريف أبى جعفر الحسينى وفوض إليه أمر مصر ثانية . ثم سافر الحسن بن عبيد الله ابن طغج إلى الشام فى ربيع الآخر سنة ٣٥٨ ، وقدمت جيوش الفاطميين إلى مصر بعد مسيره بمدة يسيرة [٢] .

ومما يشهد بمكانة جعفر بن الفضل أن اسم كافور لا يذكر مع اسمه فى الكتابة التاريخية التى أشار إليها المقريزى [٣] . والتى وجدت بعض آثارها تخليداً لبناء بئر الوطاويط [٤] . وسوف نعود إلى الكلام على هذه الكتابة التاريخية .

وقد وصل إلينا اسمان لرجلين من رجال العصر الاخشيدى قيل إنهما وليا منصب الوزارة . والراجح عندنا أن الاخشيد فوض إليهما تدبير الإدارة فى فترتين قصيرتين خلا فيهما منصب الوزارة من صاحبه الماذرائي أو ابن الفرات . وأول هذين الرجلين أبو الحسن على بن خلف بن طباب . وقد ذكره المسعودى وأشار إلى أن الاخشيد

---

(١) كان هذا الوزير ممن وقعوا بعد ذلك فى أسر جوهر القائد وأرسلوا إلى القيروان أنظر المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٧١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣ — ٢٤

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٣٥

(٤) Wiet:Corpus, Egypte 11. pp 91 et suiv.

استوزره حين كان أبو بكر محمد بن على الماذرائى معتقلا [١] وكان الاخشيد عندئذ فى الشام ولما عاد إلى الفسطاط قبض عليه وعلى أخيه ابراهيم بن خلف . والظاهر أنه ظل محبوساً إلى أن توفى الاخشيد وتولى أونوجور وآل تدبير الأمور إلى ابى بكر محمد الماذرائى فأمر باطلاق سراحه [٢] . ومهما يكن من الأمر فان أبا الحسن على بن خلف ابن طباب كان وزيراً للقائد التركى بجكم فى بغداد [٣] ثم ولاه ناصر الدولة على أعمال الخراج والضياع بديار مصر والشام [٤] ولجأ بعد ذلك إلى الاخشيد سنة ٣٣١ هـ واتخذه الاخشيد وزيراً له .

أما الوزير الثانى فهو أبو الحسن أو أبو الحسين محمد بن عبد الوهاب . وقد ذكره المسعودى أيضا وأشار إلى أن الاخشيد استوزره بعد أن حبس على بن خلف بن طباب [٥] وإذا صح ما ذكره ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق فان محمد بن عبد الوهاب هذا كان شيعيا واعتقله الاخشيد سبع سنين ثم أطلق سراحه واصطفاه فصار من خاصته وإليه يرجع الفضل فى اقناع الاخشيد بالعدول عن الدعاء فى الخطبة للخليفة الفاطمى حين كان خانقا على الخليفة العباسى بسبب عدوان ابن رائق [٦] . وقد جاء ذكر محمد بن عبد الوهاب فى ملحق أخبار القضاة الذى طبع مع كتاب الكندى نقلا عن رفع الاصر لابن حجر العسقلانى وعن النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة لابن شاهين . ووصف محمد بن عبد الوهاب هذا بأنه كان عامل مصر ومدبر أمرها نحو سنة ٣١٣ هـ [٧] . ولسنا نستطيع الجزم بأن هذا العامل الذى كانت بيده مقاليد الأمور بمصر فى فترة وجيزة جدا من ولاية تكين هو الذى حبسه الاخشيد بعد ذلك ثم استوزره زمنا قصيراً .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٦٥
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٥
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٢٥
(٤) المرجع نفسه ج ٨ ص ١٣٦ و ١٣٩
(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٦٥
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٢٧
(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٣٢

وذكر ساويرس بن المقفع أن كافورا الاخشيدى كان له وزير قبطى اسمه أبو اليمن قزمان بن مينا وأن الفاطميين أبقوه على حاله « ناظراً فى كورة مصر »[١] والراجح أن قزمان بن مينا هذا لم يكن وزيراً وإنما كان من كبار الموظفين فى الشئون المالية بحاضرة مصر حينئذ . وعلى كل حال فالمعروف أنه ندب فى بداية العصر الفاطمى لبعض الدولة فى فلسطين وأنه جمع لنفسه مالا كثيراً[٢] .

وصفوة القول أن معالم منصب الوزير فى العصر الاخشيدى غير واضحة تماما وإننا لا نعرف اختصاصاته على وجه التحقيق . ومن المحتمل أن هذا اللقب كان يطلق فى بعض الأحيان على أكثر من شخص واحد فى الوقت نفسه . ولكن الراجح أن هذا المنصب كان يشغله فى معظم الأحيان شخص يفوض إليه الأمير معاونته فى تدبير كافة الأمور فى البلاد مستعينا بطائفة من كبار الموظفين وان منزلة بعض هؤلاء الموظفين كانت ترتفع حتى أنه ليوصف فى بعض الأحيان بأنه من وزراء الأمير[٣] .

---

(١) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، المجلد الثانى الجزء الثانى ص ٨٧ — ٨٨

(٢) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ٤٦

(٣) أشار ابن الزيات (فى الكواكب السيارة ص ٢٠٠) إلى سبع قبور فى القرافة قيل انها قبور وزراء كافور . ولعلها قبور بعض كبار الموظفين فى العصر الاخشيدى .

(٢)

الكاتب

كانت وظيفة الكاتب من الوظائف الرئيسية فى مصر الاخشيدية وفى الخلافة بوجه عام . إذ كان الكاتب يساعد الوزير فى عمله ويحرر الرسائل التى يبعث بها الأمير إلى الخليفة أو إلى غيره من الملوك والأمراء [١] . ولذا كان الكاتب يختار ممن نالوا قسطا كبيراً من الثقافة الأدبية وعرفوا بأصالة الرأى ، حتى يستطيع القيام بعمله على الوجه الأكمل . وكان من دواوين الادارة ديوان خاص تصدر عنه الرسائل والمكاتبات .

والواقع أن ديوان الانشاء أو ديوان الرسائل ازدهر نشاطه وظهرت الحاجة اليه منذ العصر الطولونى . وقد كتب القلقشندى فى هذا الصدد أن الحالة الأولى لديوان الانشاء فى مصر « ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة الطولونية ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عناية بديوان الانشاء ولا صرف همة اليه ، للاقتصار على المكاتبات لأبواب الخلافة والنزر اليسير من الولايات ونحو ذلك ، ولذلك لم يصدر عنهم ما يدون فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة » . أما الحالة الثانية . « فما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونية من ابتداء ولاية احمد بن طولون واستفحال ملك الديار المصرية فى الاسلام وترتيب أمرها وإلى حين انقراض الدولة الاخشيدية ، وفى خلال ذلك ترتب ديوان الانشاء بها وانتظم أمر المكاتبات والولايات » [٢] .

ويبدو أن الأمير الاخشيدى كان له ديوان للانشاء على رأسه كاتب أو أكثر من كاتب واحد . وأن الكاتب لم يكن يعمل فى تحرير الرسائل فحسب بل كان يقوم بما يدخل فى عصرنا الحالى فى أعمال رئيس الديوان أو السكرتير الخاص .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٠٦

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٩٥ و Zaki Mubarak : La Prose Arabe au IVe siècle p. 241.

وأول من نعرفه من كتاب الاخشيد على بن محمد بن كلا . وقد كان كاتبه فى دمشق قبل قدومه إلى مصر . وهو الذى أوفده الاخشيد إلى بغداد ليلتمس من الخليفة القاهر ولاية مصر فرد القاهر بأنه قد ولى عليها محمد بن تكين [١] . وكان الاخشيد عظيم الثقة بابن كلا . وقد مر بنا أنه أوفده إلى الرملة سنة ٣٢٨ هـ وفوضه فى عقد الصلح بينه وبين ابن رائق ، بعد أن أفلحت وساطة الحسن بن طاهر العلوى بينهما [٢] .

والظاهر أن ابن كلا لم يكن من رجال القلم فحسب ، بل كان من رجال السيف أيضا أو لم يكن بعيداً عنهم كل البعد . فقد نقل ابن سعيد عن ابن زولاق أن الاخشيد أوفد ابن كلا على رأس عساكره إلى الشام بعد قتل ابن رائق [٣] . ويبدو أن الاخشيد لاحظ فى سنة ٣٣٣ هـ أن هذا الكاتب جمع ثروة كبيرة فشك فى أمره وصادر أمواله وقبض عليه [٤] ، ولكنه أطلق سراحه بعد ذلك .

وكان ابن كلا بين الحاضرين فى الاجتماع الذى عقد بدار الامارة فى مصر لما ورد نعى الاخشيد [٥] .

وكان الأمير يعتمد على كاتبه كل الاعتماد بوصفه « رئيس ديوانه » ، فكان يشاوره فى معظم الأمور حتى خلط الناس فى هذا العصر بين الوزير والكاتب فى بعض الأحيان .

ومن ذلك أن أم أونوجور طلبت من أبى بكر الماذرائى أن ينوب عن ابنها وأن يدبر الأمور فقال : « على ألا أنزع الطيلسان ، ويكون ابنى أبو على (يعنى الحسين ابن محمد) كاتبه ، فاتفقوا على ذلك » [٦] أى أنه قبل أن يكون تدبير الأمور بيده

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٠
(٢) المرجع نفسه ص ٢٥
(٣) المرجع نفسه ص ٢٩
(٤) المرجع نفسه ص ١٧ و ٤٠
(٥) المرجع نفسه ص ٤٥
(٦) المرجع نفسه

دون أن يكون هو وزيراً بل يكون ابنه كاتبا (أو وزيراً) لأونوجور[١] . ومما يؤيد ذلك أيضا أن جمال الدين بن ظافر الأزدى ختم النبذة التى كتبها عن أونوجور بقوله : « وكاتبه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة »[٢] .

ومن كتاب العصر الاخشيدى محمد بن عبد الرحمن الروذبارى . وكان يعاون الفضل بن جعفر بن الفرات ، وقد خلفه فى أعماله حين سافر ابن الفرات إلى بغداد[٣] . ومنهم على بن صالح الروذبارى ، وقد كتب المقريزى أنه كان كاتبا لكافور وأنه حسّن له أن يوفر من « ميزانية » الرواتب بخفضها وأن الله ابتلاه بمرض قضى عليه سنة ٣٤٧ هـ وأن « هذه موعظة من الله لمن توسط للناس بالسوء »[٤] .

ويبدو من الموازنة بين النصوص التاريخية المختلفة أن طائفة الكتاب فى العصر الاخشيدى كانت تنقسم قسمين : الأول الكُتاب السياسيون وهم الذين كانوا مجال حديثنا فى السطور السابقة وكان القوم يخلطون بينهم وبين الوزراء . أما القسم الثانى فالكتاب الذين كانوا يشتغلون بتحرير الرسائل ويؤلفون ديوان الانشاء بالمعنى الذى ذكره القلقشندى وأشرنا إليه فى بداية هذا الفصل .

وكان زعيم أولئك الكتاب المحررين فى العصر الاخشيدى ابراهيم بن عبد الله بن محمد النجيرمى[٥] . وسوف نعود إلى الكلام عليه حين نتحدث عن الأدباء والعلماء .

وذكر المؤرخون أن من كتاب الاخشيد أبا جعفر بن المتفق وابن توماتس[٦] ، ولكننا لم نستطع أن نعثر فى المراجع التاريخية على شىء من سيرتهما ، اللهم إلا ماورواه

---

(١) نص المقريزى صراحة على أن الماذرائى قال : « على أن لا أنزع الطيلسان ، ولكن ابنى أبا على يكون وزيراً وأنا أدبر الأمر » . أنظر المقفى فى رسالة جوتشلك ص ١٢٤

(٢) ابن ظافر الأزدى (فى وستنفلد) ص ٥٨

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٥) نسبة إلى نجيرم وقد قال السمعانى إنها محلة بالبصرة وخالفه ياقوت فقال إنها بلدة صغيرة على مقربة من سيراف على ساحل الخليج الفارسى . أنظر ياقوت : معجم البلدان : مادة نجيرم وياقوت : معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٨ — ١٩٩

(٦) ابن ظافر الازدى (فى وستنفلد) ص ٥٨

ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق بشأن نفى ابن توماتس إلى الاسكندرية بعد وفاة الاخشيد وقبض الماذرائى على مقاليد الأمور [١] ثم ما رواه عن اشتراك ابن المتفق بثلاثمائة دينار فى نفقات متنزه أقامه الاخشيد [٢] .

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٥٤ ؛ أنظر أيضاً ص ١٧ من المرجع نفسه . وقد ورد هذا الاسم فى ابن سعيد ابن ترماقس وابن قرماقس .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢

(٣)

ولاة الأقاليم

من المعروف أن العرب لم يغيروا كثيرا فى الأساليب الادارية البيزنطية بمصر ولا فى تقسيم البلاد الادارى على عهد البيزنطيين . فظلت البلاد تنقسم إلى أقسام يعرف كل منها باسم « كورة » وعلى رأسه حاكم يسمى صاحب الكورة وله اختصاصات تشبه إلى حد ما اختصاصات المدبرن الحاليين ، كما كانت لأصحاب الكورات إمامة الصلاة فى المساجد الجامعة بحواضر كوراتهم [١] . وفضلا عن ذلك فقد كانت البلاد تنقسم أحيانا إلى عدة أقسام كبرى بحسب موقعها الطبيعى ، فكانت هناك مصر العليا ومصر السفلى ومصر الوسطى . وتسمى مصر السفلى « أسفل الأرض » ومصر الوسطى « الصعيد الأوسط » . وكانت السلطة المركزية فى الفسطاط تعين فى بعض الأحيان حاكما عاما على كل إقليم من هذه الأقاليم الكبرى . ولكن أصحاب الكورات كانوا مسئولين أمام أمير البلاد مباشرة، ولسنا نعرف تماما اختصاص حاكم الإقليم الذى يتألف من عدة كورات . والواقع أننا لا نستطيع أن نؤكد أن البلاد كانت تشتمل دائما على أقاليم كبرى تضم عددا من الكورات ، ولكن المراجع التاريخية تشهد بوجود هذا التقسيم أحيانا . وكان لكل من المدن الساحلية والواحات وبرقة وسينا حاكم يعينه الأمير أو يعينه الخليفة مباشرة . ومع ذلك فقد كان بعض المناطق كورة قائمة بذاتها أو كان يضم عدة كورات [٢] . والراجح أن مصر كان بها نحو ثمانين كورة تضم كل منها عددا من القرى والعزب ، يرأس كل منها « مازوت » ، وهو العمدة الحالى وقد عرف منذ العهد الطولونى باسم « العميد » [٣] .

---

(١) أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٨ — ٢٩ وما ذكر فيهما من المراجع القديمة .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٣

(٣) Ibn Said-Vollers : Fragmente p. 34

ومن المحتمل أن حكام الأقاليم أو الكورات المهمة كانوا يختارون من كبار قواد الأمير وأعوانه . أما اختيار المازوت أو العمدة فلسنا نعرف قواعده عما ما ، ولكنا نرجح أن المازوت كان من أهل القرية نفسها وأن رؤساء الكورات كانوا يحتفظون بقوات من الشرطة يعتمدون عليها فى إقرار النظام. ولسنا نعرف شيئا عن رواتب رؤساء الكورات وحكام الأقاليم . وبالنظر إلى أن الحكومة كانت تعتمد عليهم فى جمع الضرائب المقررة فالراجح أنهم كانوا يحجزون من الضرائب رواتبهم والأموال اللازمة لإدارة كوراتهم .

أما المدن والأقاليم التى كان الأمراء يفتحونها فى الشام فكان على رأس كل منها حاكم يعينه الأمير .

وقد ظل هذا النظام قائما فى عصر الولاة وفى العصر الطولونى [١] وفى الفترة التى تفصل العصرين الطولونى والاخشيدى . والراجح أن قصر العصر الاخشيدى وطبيعة البلاد وأصالة هذا النظام كل ذلك كان من شأنه أن يبقى هذا النظام فى العصر الاخشيدى نفسه .

والواقع أن النصوص التاريخية التى وصلت إلينا عن حكم الأقاليم وتقسيمها الادارى فى العصر الاخشيدى قليلة .

ومن ذلك ما رواه المقريزى نقلا عن وثيقة بخط كاتب قبطى كان من ولاة الخراج فى العصر الاخشيدى . وقد جاء فى هذه الوثيقة أن قرى مصر كانت سنة ٣٤٥ هـ ألفين وثلاثمائة وخمسا وتسعين قرية ، منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية وبأسفل الأرض ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية [٢] .

ويبدو أن حاكم الأقليم فى العصر الاخشيدى كان يعرف احيانا باسم والى الحرب [٣] . وقد ذكر الكندى عند الكلام على ثورة غلبون والى اقليم الأشمونين ، أنه كان والى الحرب فى هذا الإقليم [٤] .

---

(١) Zaki M. Hassan : Les Tulunides pp. 196-199 وما جاء فيها من المراجع القديمة .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٣

(٣) يذهب بعض المستشرقين إلى أن والى الحرب هو صاحب الشرطة ولكنا نرجح أن والى الصلاة والحرب هو الحاكم العام للاقليم . أنظر Wiet : Corpus, Egypte 11. p. 54.

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٥ و Maspero et Wiet : Matériaux pour servir à la géographie d'Egypte p. 21.

وممن وصل إلينا أسماؤهم من ولاة الأقاليم فاتك الاخشيدى الذى ولى دمشق[١] ، وشعلة بن بدر الاخشيدى الذي وليها أيضا سنة ٣٣٨ هـ[٢] . وذلك فضلا عن الحسن بن طغج وعبيد الله بن طغج وقد مر بنا أنهما وليا ها من قبل أخيهما الاخشيد[٣] .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ وج ٤ ص ٤ — ٥

(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ٢٩٩ و٣١٣

(٣) المرجع نفسه ج ٣ ص ٣١٠

obeikandl.com

(٤)

صاحب الشرطة [١]

كانت الشرطة فى التاريخ الاسلامى نخبة من الجند يتبعون الخليفة أو حكام الأقاليم ويعهد إليهم بأعمال البوليس وحفظ النظام ورعاية الأمن . ويسمى رئيسهم صاحب الشرطة أو صاحب الشرط أو غير ذلك مما يفيد هذا المعنى [٢] وكان صاحب الشرطة هو الحاكم الفعلى للمدينة التى يرأس شرطتها [٣] ، وكان له سلطان واسع مستمد من الخليفة أو الأمير [٤] وكان صاحب الشرطة فى مصر الى عهد قيام ابن طولون يعين من قبل الوالى . ولما أنشئت العسكر على يد أول الولاة العباسيين فى مصر أنشئت فى حاضرة مصر الاسلامية شرطة جديدة سميت الشرطة العليا [٥] ، وكان مقرها دارا جنوبى المكان الذى شيد فيه ابن طولون مسجده الجامع [٦] . ولا ترجع تسميتها الشرطة العليا الى أنها أعظم شأنا من شرطة الفسطاط كما قد يتبادر إلى الذهن [٧] . ولكن هذه التسمية مشتقة من الموقع

---

(١) راجع عن الشرطة فى الاسلام مقال « شرطة » للأستاذ تزترشتين Zettersteen فى دائرة المعارف الاسلامية وما ذكر فيه من المراجع القديمة .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٤ و Wiet : Corpus Egypte II. pp. 51-62

(٣) مما يؤيد ذلك ما كتبه الكندى عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب الشرطة فى ولاية يزيد بن حاتم المهلبى على مصر سنة ١٤٥ فقد قال انه « على الفسطاط » . والواقع أن عبد الرحمن هذا جمع بعد ذلك بين القضاء وولاية الشرطة فكتب الكندى أنه جمع بين « القضاء وخلافة الفسطاط » ، أنظر الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٢٤ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٨ فضلا عن أن صاحب الشرطة كان يسمى فى عصر المماليك « الوالى » أو صاحب العسس . أنظر المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٣ وكان يسمى عند الموحدين فى المغرب « الحافظ » أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٣٩

(٤) اقرأ فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٢٠٢ و ٢١٥ ما جاء بشأن ما يجب أن يكون عليه صاحب الشرطة فى وصايا كتبها عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن الخليفة الأموى مروان بن محمد لبعض من ولاه .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٤

(٦) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٦٤

(٧) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٣

وحدود الاختصاص وتشهد بأن تقسيم الفسطاط الى « عمل فوق » و « عمل أسفل » يرجع الى عهد انشاء العسكر سنة ١٣٣ هـ[١] . بل ان صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط كان أعلى شأنا وأعظم اختصاصا من زميله بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى الحاضرة . ونرى أن الكندى يذكرهما معاً مرة واحدة[٢]، ولكنه لا يذكر بعدها إلا صاحب شرطة الفسطاط[٣] .

ومن المحتمل أن صاحب الشرطة فى الحاضرة كان له أعوان فى سائر أنحاء البلاد ولكن الراجح عندنا أن ولاة المدن والأقاليم فى ريف مصر كان لكل منهم شرطة يتخذها لإقرار الأمن والمحافظة على النظام فى منطقة حكمه .

ولما قدم محمد بن طغج الى مصر واستقر له الأمر عين على الشرطة سعيد بن عثمان غلام الأحول فى رمضان سنة ٣٢٣، وكان سعيد هذا صاحب الشرطة على عهد أحمد بن كيغلغ ولكنه لحق بابن طغج عند قدومه فكافأه على ذلك بتعيينه فى هذا المنصب[٤] .

وتوفى سعيد بن عثمان فى صفر سنة ٣٢٨ هـ فقام غلامه بدر مقامه الى شهر جمادى الأولى . ثم عين شادن مولى الفضل بن جعفر بن الفرات[٥] وما لبث أن عزل فى شعبان من السنة نفسها ، وخلفه على الشرطة على بن سبك الى ربيع الآخر سنة ٣٢٩ هـ ثم الحسين بن على بن معقل الى رجب ثم ينال الحاكي الى ذى الحجة من السنة نفسها حين أعيد على بن سبك . وظل ابن سبك فى هذا المنصب الى رمضان سنة ٣٣٠ حين صرف عنه وعين احمد بن موسى بن زغلمان[٦] . وعزل ابن زغلمان فى جمادى الأولى

---

(١) كتب المقدسى (أحسن التقاسيم ، طبعة دى غويه ص١٩٩) ان جامع عمرو كان يسمى الجامع السفلانى وجامع ابن طولون الجامع العليانى . راجع عن هذا التقسيم خطط المقريزى ج ١ ص ٥ و ٢٩٩

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٠٢

(٣) المرجع نفسه ص ١٠٦ و١٠٧ و١١٨

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٥ — ٢٨٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥١ — ٢٥٢

(٥) الراجح أنه غير شادن الصقلبي غلام الاخشيد . أنظر ابن سعيد : المغرب ص ١٤ — ١٩ و٢٨ و٣٣ و٣٤

(٦) كان من قواد الاخشيد . أنظر المغرب : ابن سعيد ص ١٨

سنة ٣٣١ وعين على الشرط محمد بن داوود وكان ممن عملوا مع ابن رائق ثم تركه وقدم الى مصر [١] . وتوفى ابن داوود فى جمادى الأولى سنة ٣٣٢ فخلفه مظفر بن العباس الجيشانى الى ذى القعدة سنة ٣٣٣ وبعده لؤلؤ الغورى الى ذى الحجة سنة ٣٣٤ [٢] ثم أعيد على بن سبك . وتوفى الاخشيد بعد ذلك ببضعة أيام .

أما أصحاب الشرطة فى عهد خلفاء الاخشيد فان أسماءهم وتواريخ تعيينهم لم تصل إلينا كاملة . وسبب ذلك أن الكندى وقف فى كتابه عن ولاة مصر عند وفاة الاخشيد وأن هذا المؤرخ دون غيره من سائر المؤرخين فى مصر الاسلامية كان يعنى بذكر أصحاب الشرطة عند الكلام على ولاة مصر .

ومهما يكن من الأمر فقد جاء فى تذييل كتاب الكندى اسم صاحب الشرطة تكين الخاقانى . وكان تكين هذا من قواد الاخشيد [٣] ويبدو أنه ولى الشرطة على عهد اونوجور ثم عزل وخلفه عليها جندى اسمه نصر وقد أظهر الظلم والقسوة وعزل سنة ٣٤٤ [٤] .

ومن أصحاب الشرطة على عهد خلفاء الاخشيد بدر غلام يانس وقد وليها سنة ٣٥١ هـ .

وإذا حكمنا بما نعرف عن عصر الاخشيد نفسه فقد كان عدد أصحاب الشرطة فى الدولة الاخشيدية كبيراً . والراجح عندنا أن ذلك كان وفقاً لسياسة محكمة تقضى بتغيير كبار الموظفين من حين إلى آخر ابعاداً لهم عن توطيد نفوذهم فى أى مرفق من مرافق الدولة وتشجيعاً للتنافس بين الطامعين فى الوظائف .

والمعروف أن صاحب الشرطة كانت له صفة سياسية فى عصر الولاة وكان بمثابة نائب الوالى فى حكم البلاد ، يحل محله إذا مرض أو تغيب ويحكم البلاد إذا توفى الوالى ،

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩١
(٢) المرجع نفسه ص ٢٩١ — ٢٩٣
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٣
(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٦

إلى أن يصل الوالى الجديد . وكثيراً ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة والياً على البلاد إذا مات الوالى أو عزل أو استقال [١] .

أما فى العصر الطولونى ثم فى العصر الاخشيدى من بعده فلا نلاحظ وجود هذه الصفة السياسية . وكان الأمراء فى الدولتين لا يستخلفون صاحب الشرطة ، فكانت مهمة الأخير تقف عند المحافظة على الأمن ومساعدة الأمير والموظفين القضائيين فى إقرار النظام بتنفيذ قراراتهم وأحكامهم والعمل على منع الجرائم والمخالفات .

ومما يلاحظ فى وظيفة صاحب الشرطة وفى بعض الوظائف الإدارية بوجه عام أن معظم الذين كانوا يعينون فيها كانوا من الوافدين على مصر أو من المتصلين بالأمراء والجند الترك ولم يكونوا من أفراد الشعب المصرى ، الذى كان يعيش فى الغالب على هامش الأحداث السياسية ولا يشترك فى إدارة البلاد اشتراكا ملموساً [٢] .

---

(١) أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٤ وما ذكر فيها من المراجع القديمة .

(٢) G. Wiet : Le Mosquées du Caire I pp. 66-70 ; Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 212 — 222.

(٥)

عامل الخراج [١]

من مظاهر استقلال مصر فى العصر الاخشيدى أن اجتمعت لمحمد بن طغج ولاية الصلاة وولاية الخراج والأموال كما اجتمعتا لابن طولون من قبله [٢] . والراجح أن عامل الخراج فى الدولة الاخشيدية كان رئيس الهيئة التى تشرف على جمع الخراج وعلى تدبير نفقات الإدارة فى البلاد أى أنه كان بمثابة وزير مالية للأمير .

ومما يؤسف له أن المراجع التاريخية لم تحفظ لنا شيئا كثيراً عن عمال الخراج فى مصر الاخشيدية ولا عن أساليبهم فى جباية الضرائب وتنظيم مصروفات الدولة .

وقيل ان أبا الحسين الفرغانى كان على الخراج عندما دخل الاخشيد مصر [٣] . وكتب أبو المحاسن أن كافورا قبض على أبى بكر محمد بن على بن مقاتل صاحب خراج مصر سنة ٣٣٥ وولى مكانه أبا بكر محمد بن على الماذرائى [٤] . وقد مر بنا أن الماذرائى كان وزيراً وأن ابن مقاتل كان يقوم بأعمال الوزارة حتى حسبته بعض المراجع القديمة وزيرا . والواقع أن بعض وزراء هذا العهد ، كان لهم الاشراف على الشئون المالية فى البلاد وكان يطلق على الوزير فى بعض الأحيان « صاحب الخراج » أو « متولى ديوان الخراج » .

ويبدو أن الإشراف على ديوان الخراج كان يدر على صاحبه مالا كثيراً فقد كتب الذهبى أن أبا بكر محمد بن على بن مقاتل — متولى ديوان الخراج — لما توفى سنة ٣٣٥ هـ وجدوا فى داره ثلاثمائه الف دينار مدفونة [٥] .

---

(١) أنظر ابن خلدون : المقدمة (الفصل الرابع والثلاثون فى مراتب الملك والسلطان وألقابهما . ديوان الأعمال والجبايات) ص ٢٠٣

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٥

(٣) المرجع نفسه ص ١٧

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩١

(٥) الذهبى : تاريخ الاسلام ص ٨٢ . وقد روى أبو المحاسن هذه القصة فى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٨ ولكنه ذكر ابن مقاتل فى وفيات سنة ٣٥٠ هـ . والواقع اننا لم نستطع تحقيق السنة التى توفى فيها ابن مقاتل لأننا لا نعرف شيئاً من سيرته بعد سنة ٣٣٥ هـ .

وإذا صح ما ذكره ابن زولاق فقد كان من عمال الخراج فى عهد الاخشيد موظف كبير اسمه على بن محمد الكرخى [١] .

ويبدو من بعض النصوص التاريخية أنه كان يحدث أحيانا أن يصبح النظر فى الشئون المالية لموظف كبير من موظفى ديوان الخراج ، ففى فترة من عهد كافور كان يعقوب بن كلس قابضاً على مالية البلاد . وقيل ان كافورا أمر رؤساء جميع الدواوين بألا يصرف درهم أو دينار بغير توقيع ابن كلس . ومع ذلك فان ابن كلس لم يكن وزيراً فى عهد كافور [٢] . ويروى أن كافوراً كان يقول عنه: « لو كان مسلما لصح أن يكون وزيراً ! » . والظاهر أن ابن كلس اعتنق الاسلام عندما تبين أن دينه اليهودي يحول دون وصوله إلى منصب الوزارة . غير أن اسلامه سنة ٣٥٦ هـ جاء متأخراً ، فقد كانت الوزارة حينئذ لأبى الفضل جعفر بن الفرات وكان يحسد ابن كلس ويكرهه فقبض عليه ولكنه أفلح فى الهرب إلى بلاد المغرب [٣] .

والظاهر أن أهل الذمة كانوا لا يزالون يعملون فى جباية الخراج فى البلاد بوصفها من الأعمال التى لم يكن ميسورا أن يستغنى عنهم فى أدائها ، ففى الأوراق البردية المحفوظة بمجموعة الأرشيدوق رينر فى ڤينا وثيقة من البردى تتضمن إيصالا مؤرخا من سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٢ م) يثبت أن بكام بن دنيال دفع الجزية المقررة عليه وهى ثلث دينار وثلثاً قيراط فى حضور ابى الحسن بن عيسى لعامل الجباية تيودور ابن خاييل [٤] .

وممن أشرفوا على الشئون المالية فى العصر الاخشيدى الكاتب القبطى ابن عيسى بقطر بن شغا . وقد كتب المقريزى أنه تولى خراج مصر للدولة الاخشيدية [٥] .

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٧

(٢) نقل السيوطى عن ابن زولاق ان ابن كلس « كان من جملة كتاب كافور » أنظر حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٩ (ذكر وزراء مصر) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٠ — ٤٤٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١

(٤) Papyrus Erzherzog Rainer, Führer durch die Ausstellung p. 243 No. 916

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٣ . وأنظر أيضاً ترتون Tritton : أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٧

وقد وصل إلينا اسم موظف كبير من عمال الدولة الاخشيدية فى عهد أونوجور. وسمه ابراهيم بن مروان. وكان نصرانياً والراجح أن عمله كان متصلا بالشئون المالية فى البلاد [١]. ومن القبط الذين اشرفوا على إدارة الشئون المالية على عهد الاخشيديين جرير بن الحصان [٢].

(١) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى ص ٣٦ و٤٣
(٢) المرجع نفسه ص ٤٣

obeikandl.com

(٦)

ممثل الأمير فى بغداد

كان للاخشيد ممثل فى بغداد يرقب عن كثب ما يجرى فى بلاط الخليفة ودواوين حكومته وينقل إلى الأمير فى مصر ما يعنيه من الأمور ويعمل على الدفاع عن مصالح الأمير ويتلقى أوامره فى هذا الشأن . فهو أشبه شيء بالمندوب السامى فى لندن لحكومات الدومينيون أو الحكومات المستقلة فى مجموعة الأمم البريطانية . وكان الاخشيد فى هذا الصدد ينسج على منوال ابن طولون الذى كان له ممثلون وعيون فى سامرا [١] . ولم يكن عمل ممثل الاخشيد يقف عند تمثيله رسميا فى بلاط الخليفة ودواوين حكومته ولكنه كان يمتد إلى التجسس وما إلى ذلك مما يلزم لخدمة قضايا الاخشيد بوجه عام .

وقد كتب ابن سعيد أن « خليفة » الاخشيد فى بغداد هو على بن أحمد العجمى . وأن الاخشيد كتب إليه عند هجوم ابن رائق على أملاكه فى الشام وطلب منه أن يرفع الأمر إلى الخليفة الراضى ليتبين رأيه ويشير بما يجب على الاخشيد أن يفعله [٢] .

والراجح أن كافورا كان له ممثل فى بغداد وإن كانت المراجع القديمة لم تحتفظ لنا باسمه .

---

(١) راجع Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 104-105 وما ذكر فيهما من المراجع القديمة . وانظر البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ٦٠ و٦١ و١٠٩ و١٣٩ و١٥١ و١٦٧ و٢٨٦ و٢٩٠

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٢٦

(٧)

صاحب الطراز

عنى المسلمون فى مصر بصناعة النسج منذ الفتح العربى . ولا غرو فقد حذقها المصريون منذ العصور القديمة ثم تقدمت على يدهم فى العصر القبطى ، وإن تكن قد تأثرت بالأساليب الزخرفية البيزنطية وما تمثله بيزنطة من الموضوعات الزخرفية الساسانية . وظل التقدم مطردا فى العصر الاسلامى ، إذ بقيت هذه الصناعة فى يد أهل البلاد سواء منهم من اعتنق الاسلام أو تمسك بالمسيحية .

واحتكرت الحكومة صناعة النسج الى حد كبير . فكانت هناك مصانع حكومية تسمى طراز ، وهى نوعان : الأول طراز الخاصة حيث كانت تصنع المنسوجات للخليفة أو للأمير والأقمشة التى كان يخلعها على كبار رجال الدولة . والثانى طراز العامة وكان يشتغل فضلا عن هذا بنسج الأقمشة اللازمة للشعب [١] وكانت تسير مع الطراز الحكومى جنبا إلى جنب مصانع أهلية تثقلها الحكومة بضرائب فادحة ورقابة شديدة [٢] .

وظل نظام الطراز يتطور حتى بلغ فى العصر الاخشيدى حدا كبيرا من الجودة فى الانتاج مما مهد لعصره الذهبى فى عهد الفاطميين . وكان يشرف على الطراز موظف كبير يسمى صاحب الطراز أو ناظر الطراز . ولسنا نعرف مدى سلطانه وحقوقه فى العصر الاخشيدى ، ولكنا نستطيع أن نتصوره مما نعرفه عن حاله فى العصرين الفاطمى والمملوكي حين كان من أعلى الموظفين مقاما وأحسنهم راتبا وأوسعهم سلطانا وكان لصاحب الطراز

---

(١) راجع مقال « طراز » الذى كتبه الأستاذ جرومان فى دائرة المعارف الاسلامية (فى الجزء الرابع وفى الملحق) .

(٢) أنظر زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ٨٣ — ٩٠ وكنوز الفاطميين للمؤلف نفسه ص ١١٠ وما بعدها .

مساعدون فى مصانع النسج بالبلاد المصرية كلها كما كان له مقر رسمى فى الحاضرة ومراكب حكومية ينتقل بها فى النيل [١] .

وكان يعاون صاحب الطراز فى الاشراف على المصانع فى كل إقليم من الأقاليم المصرية فى فجر الاسلام موظف يسمى المتوكل بطراز الإقليم ، كما يتبين من وثيقة بردية فى دار الكتب المصرية نشرها الأستاذ جرومان وترجع الى القرن الثالث الهجرى وقد جاء فيها « قبض حسين [٢] بن يحنس من رماح بن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصنى [٣] »

ومن أصحاب الطراز فى العصر الاخشيدى جابر وشفيع وبكير وأبو يزيد وعبيد وفائز . أما جابر فقد وصل إلينا اسمه على قطعتين من نسيج الكتان محفوظتين فى دار الآثار العربية بالقاهرة وعليهما كتابة بالخط الكوفى مؤرخة سنة ٣٢٣ هـ [٤] . وعلى قطعة أخرى من نسيج الكتان محفوظة فى متحف بناكي بأثينا ومؤرخة سنة ٣٢٤ [٥] وعلى قطعتين من النسيج إحداهما من الحرير والأخرى من الكتان محفوظتين فى متحف بناكي أيضا وعليهما اسم جابر بعد اسم الوزير الفضل بن جعفر . [٦] كما نجد اسمه أيضا على قطعة نسيج من الكتان محفوظة فى متحف بناكي ومؤرخة سنة ٣٢٨هـ [٧] وعلى قطعة أخرى من الكتان كانت فى مجموعة تانو تاجر العاديات بالقاهرة وهى مؤرخة سنة ٣٣٠ هـ وعليها اسم جابر بعد اسم الخليفة المتقى [٨] . كما نجده على قطعة نسيج من الكتان محفوظة فى دار الآثار العربية بالقاهرة (رقم ٩٣٨٦) [٩] .

---

(١) راجع القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢ — ٤٩٤ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ وزكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٢ — ١١٤

(٢) الراجح عندنا أن قراءتها « حنين » وليست « حسين » .

(٣) A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library vol. II. p. 153 and plates 17 and 19

(٤) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV No. 1260 p. 28

(٥) ibid t. IV No. 1266 p. 32

(٦) ibid t. IV Nos. 1294 et 1295 p. 47

(٧) ibid t. IV No. 1304. p. 53

(٨) ibid t. IV No. 1360 p. 76

(٩) ibid t. IV No. 1420 p. 106.

وثمة قطعة نسيج أخرى من الكتان محفوظة فى القسم الاسلامى من متاحف الدولة فى برلين وعليها كتابة بالخط الكوفى البسيط . وقد قرأها الأستاذ الدكتور كونل على النحو الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين بركة من الله لعبد الله أبى العباس الإمام الراضى بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه أمر الوزير (أبو) الفضل جعفر أيده الله بعمله فى طراز الخاصة بمصر على يدى خالد (؟) مولى أمير المؤمنين سنة ثلث وعشرين وثلثمائة »[١] .

وبالنظر إلى أننا لم نر هذه القطعة من النسيج فاننا لا نستطيع أن نجزم بصحة قراءة اسم « خالد » لنحسبه اسما جديدا من أسماء أصحاب الطراز فى العصر الاخشيدى . إذ من المحتمل أن تكون القراءة الصحيحة « جابر » وهو الذى نحن بصدده من أصحاب الطراز .

أما شفيع فقد جاء اسمه على قطعتين من نسيج الكتان احداها فى دار الآثار العربية بالقاهرة (رقم ١٠١٠٠) والأخرى محفوظة فى متحف بناكى ومؤرخة من سنة ٣٢٦[٢]

وجاء اسم بكير على قطعة من نسيج الكتان كانت فى مجموعة تانو تاجر العاديات بالقاهرة ومؤرخة سنة ٣٢٥[٣] . كما جاء اسم أبى يزيد على قطعة من نسيج الكتان محفوظة فى دار الآثار العربية بالقاهرة (رقم ٩٧٨٤)[٤] . وجاء اسم عبيد على قطعة من الكتان كانت فى مجموعة تانو[٥] .

---

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV No. 1260 A p. 206-207

هكذا قرأها الأستاذ كونل ووضع لفظ « أبو » بين قوسين لأنه غير ظاهر فى الكتابة ولكن الصحيح هو (أبو الفتح الفضل بن جعفر) لأنه الوزير فى السنة المذكورة .

(٢) ibid t. IV, Nos. 1267 et 1276 pp. 32 et 38

(٣) ibid t. IV. No. 1271 p. 34

(٤) ibid t. IV. No. 1288 p. 42

(٥) ibid t. IV. No. 1260 p. 15

أما فائز فقد جاء اسمه على قطعة من نسيج الكتان كانت فى مجموعة تانو أيضا وهى مؤرخة سنة ٣٣٨[١] وعلى قطعة أخرى محفوظة فى متحف بناكى ومؤرخة سنة ٣٤٧[٢] وعلى قطعة ثالثة من نسيج الكتان كانت فى مجموعة تانو ومؤرخة سنة ٣٥١[٣] وعلى قطع أخرى ، بعضها مؤرخ سنة ٣٥٧ أى قبل الفتح الفاطمى بعام واحد[٤] .

ولا يفوتنا فى مناسبة الكلام على صاحب الطراز أن نشير إلى أن أسماء الخلفاء كانت تنسج فى الأقمشة الثمينة بلحمة[٥] من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان تمجيدا لهم ودليلا على أنها صنعت فى عصرهم ووثيقة لمن خلعت عليه تدل بنوعها على درجته ووظيفته وتشير إلى رضاء الأمير عنه[٦] .

ولكننا نلاحظ أن أسماء الأمراء الاخشيديين لم تظهر فى كتابات المنسوجات كما ظهر اسم خمارويه وهارون من أمراء الدولة الطولونية[٧] . ولسنا نستطيع أن نعلل ذلك على وجه التحقيق ، ولكننا نرجح أن الاخشيد لم يعن بهذا المظهر من مظاهر الاستقلال — ونقصد ذكر اسم الأمير فى الطراز — لأنه كان شديد العناية بتقليد ابن طولون . وابن طولون لم يحرص على ذكر اسمه فى الطراز ، لأنه كان يعمل على أن يظل ولاؤه للخليفة نفسه — وليس لأخيه الموفق صاحب الأمر فى الحكم — غير مشكوك فيه . أما خلفاء الاخشيد فلعلهم لم يذكروا اسماءهم فى الطراز لأن كافورا كره أن يغتصب حق الخليفة فى هذا الميدان فوق اغتصابه السلطان من ذرية الاخشيد .

ومهما يكن من الأمر فان الكتابات التى وصلت إلينا من العصر الاخشيدى تشتمل عادة على اسم الخليفة والوزير وقد تشمل تاريخ النسج أيضا . وفيما يلى بيان بتلك القطع وما تسجله من الأسماء .

---

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV No. 1442 p. 118

(٢) ibid t. IV. No. 1493 p. 146.

(٣) ibid t. IV. No 1555 p. 180

(٤) ibid t. V. Nos 1639, 1641.1642.1643

(٥) اللحمة : ما نسج عرضا وهو خلاف سداه .

(٦) أنظر ابن خلدون : المقدمة (الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به) ص ٢٢٢

(٧) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. II Nos. 731, 757, 785, 788 et t. III Nos. 805, 813, 815, 818, 847.

رقم القطعة فى السجل[1]	الخليفة	الوزير العباسى	التاريخ	ملاحظـــات
١٢٦٠		محمد بن على (ابن مقلة)	٣٢٣	
١٢٦١	الراضى بالله	محمد بن على (ابن مقلة)	٣٢٣	
١٢٦٦	الراضى بالله	محمد بن على (ابن مقلة) وعلى ابنه	٣٢٤	كان ابن مقلة وزيرا للمرة الثالثة من جمادى الأولى سنة ٣٢٢ إلى جمادى الأولى سنة ٣٢٤ اما ابنه على فانه لم يتقلد الوزارة إلا فى رمضان سنة ٣٣١
١٢٦٧		سليمان بن الحسن		تقلد سليمان بن الحسن بن مخلد الوزارة للمرة الثانية فى رجب سنة ٣٢٤
١٢٧٠	الراضى بالله		٣٢٥	
١٢٧٥	الراضى بالله	سليمان بن الحسن	٣٢٥	
١٢٧٦	الراضى بالله	محمد (ابن مقلة)	٣٢٦	تقلد محمد بن على (ابن مقلة) الوزارة للمرة الرابعة فى ربيع الآخر سنة ٣٢٦
١٢٧٧	الراضى بالله		٣٢٦	
١٢٧٨	الراضى بالله	محمد بن على (ابن مقلة)	٣٢٦	
١٢٨٢ — ١٢٩١	الراضى بالله	محمد بن على (ابن مقلة)		

(1) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV.

رقم القطعة فى السجل	الخليفة	الوزير العباسى	التاريخ	ملاحظـــات
١٢٩٢		الفضل بن جعفر (ابن الفرات)		تقلد الوزارة فى عهد الراضى مرتين: الأولى من ذى الحجة إلى ربيع الآخر سنة ٣٢٦ والثانية من شوال سنة ٣٢٦ إلى رجب سنة ٣٢٧
١٢٩٣		الفضل بن جعفر (ابن الفرات)		
١٢٩٤		الفضل بن جعفر		
١٢٩٥		الفضل بن جعفر		
١٢٩٦	الراضى	أبو الفتح (الفضل بن جعفر)		
١٣٠٩		أبو عبد الله أحمد ابن محمد		هو أحمد بن محمد البريدى تقلد الوزارة للراضى من رجب سنة ٣٢٧ إلى ذى القعدة سنة ٣٢٨
١٣١٠ — ١٣١٦	الراضى			
١٣١٩ — ١٣٣٠	الراضى			
١٣٣١	الراضى	على بن عيسى		تقلد الوزارة مرتين للخليفة المقتدر سنة ٣٠١ وسنة ٣١٤ ولم يتقلدها للراضى . وإنما تقلدها له أخوه عبد الرحمن بن عيسى بن داوود الجراح من منتصف جمادى الأولى إلى بداية جمادى الآخرة سنة ٣٢٤

obeikandl.com

رقم القطعة فى السجل	الخليفة	الوزير العباسى	التاريخ	ملاحظـــات
١٣٣٢ — ١٣٥١	الراضى			
١٣٥٢	المتقى	محمد بن أحمد		لعله محمد بن أحمد الاسكافى القراريطى. وقد تقلد الوزارة للمتقى من شوال إلى ذى القعدة سنة ٣٢٩ ثم تقلدها له مرتين افترتين قصيرتين فى سنة ٣٣٠ وسنة ٣٣١
١٣٥٣	المتقى	محمد بن أحمد		
١٣٥٥	المتقى	سليمان بن الحسن	٣٣٠	هو سليمان بن الحسن بن مخلد . أقره المتقى فى الوزارة من ربيع الأول إلى شعبان سنة ٣٢٩ ولعل هذه المنسوجات تمت قبل أن يصل إلى مصر خبر عزله
١٣٥٧ — ١٣٦٨	المتقى	سليمان بن الحسن	٣٣٠	
١٣٧٠ — ١٣٧٣	المتقى	محمد	٣٣١	لعله محمد بن أحمد القراريطى . تقلد الوزارة للمرة الثالثة عشرين يوما فى رمضان سنة ٣٣١
١٣٩٣ — ١٤٠٥	المتقى			
١٤٠٦	المتقى	محمد بن على	٣٣٣	الصحيح على بن محمد (ابن مقلة الاصغر) تقلد الوزارة للمتقى فى رمضان سنة ٣٣١
١٤٠٧	المتقى	على بن محمد (ابن مقلة)		

رقم القطعة فى السجل	الخليفة	الوزير العباسى	التاريخ	ملاحظات
١٤١٠	المستكفى	محمد بن على (السامرى)	٣٣٣	هو أبو الفرج محمد بن على السامرى تقلد الوزارة للمستكفى فى ٢٩ من صفر سنة ٣٣٣
١٤١١ — ١٤١٢	المستكفى			
١٤١٣	المستكفى	محمد بن على (السامرى)		
١٤١٦ — ١٤٢٠	المطيع		٣٣٥	
١٤٢٣	المطيع	سليمان بن الحسن	٣٣٦	
١٤٢٧ — ١٤٢٩	المطيع		٣٣٧	
١٤٣٠	المطيع	محمد بن على	٣٣٧	
١٤٣١		محمد بن على		
١٤٣٢	المطيع	محمد بن على		
١٤٣٣ — ١٤٣٤		محمد بن على		
١٤٤٠ — ١٤٤١	المطيع		٣٣٨	
١٤٤٤	المطيع		٣٣٩	
١٤٤٩ — ١٤٥١	المطيع		٣٤٠	
١٤٥٢	المطيع	سليم بن الحسن	٣٤٠	

obeikandi.com

رقم القطعة فى السجل	الخليفة	الوزير العباسى	التاريخ	ملاحظـــات
١٤٥٣ — ١٤٥٦	المطيع		٣٤٠	
١٤٥٧		سليم بن الحسن		
١٤٦٥	المطيع		٣٤٢	
١٤٧٠ — ١٤٧٢	المطيع		٣٤٣	
١٤٨١	المطيع		٣٤٥	
١٤٨٣ — ١٤٨٤	المطيع		٣٤٥	
١٤٩٣	المطيع		٣٤٧	
١٥٢٢ — ١٥٢٣	المطيع		٣٥٠	
١٥٥٥	المطيع		٣٥١	
١٥٦٠	المطيع		٣٥٢	
١٥٦٨ — ١٥٦٩	المطيع	سليم بن الحسن	٣٥٣	
١٥٧٠ — ١٥٧١	المطيع	سليم بن الحسن		
١٥٧٢	المطيع			
١٥٧٣ — ١٥٧٥	المطيع	سليم بن الحسن		
١٥٧٦	المطيع			

obeikandl.com

رقم القطعة فى السجل	الخليفة	الوزير العباسى	التاريخ	ملاحظـــات
١٥٧٧	المطيع	سليم بن الحسن		
١٦٠٨[1]	المطيع		٣٥٤	
١٦١١ — ١٦١٢	المطيع		٣٥٤	
١٦٢٢	المعز		٣٥٥	مما يلفت النظر وجود هذه القطعة باسم المعـــز لدين الله الفاطمى وتاريخها ٣٥٥ أى قبل الفتح الفاطمى بثلاثة أعوام . ولسنا نستطيع أن نجزم بصحة التاريخ المكتوب عليها ، فقد يكون ثمة خطأ فيه . وإلا فلا مفر لنـــا من القول بأنها صنعت فى مصر المعز وان كافورا كان يسمح بمثل هذا الامتياز مهادنة للفاطميين .
١٦٢٣ — ١٦٢٥	المطيع		٣٥٥	
١٦٢٩ — ١٦٣٠	المطيع		٣٥٦	
١٦٣٧	المطيع		٣٥٧	
١٦٤٠	المطيع		٣٥٧	
١٦٤٢ — ١٦٤٧	المطيع			
١٦٦٠ — ١٨٠٩	المطيع			

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. v

ونستطيع أن نستنبط من البيانات التى ذكرناها الحقائق التاريخية الآتية :

(أولا) أن أسماء الخلفاء العباسيين ظلت تذكر فى الطراز بمصر إلى الفتح الفاطمي ، دليلا على سيادتهم على البلاد .

(ثانيا) أن أسماء الأمراء الاخشيديين لا تذكر فى الطراز . مما يشهد بأن الاستقلال الذى نالته مصر على يدهم كان استقلالا تقيده الولاية العامة للخليفة .

(ثالثا) أن أسماء الوزراء العباسيين كانت تذكر كثيرا فى الطراز إلى خلافة المطيع . وأما منذ ولاية هذا الخليفة فقد ازداد ضعف الخليفة وصار الوزير لمعز الدولة ابن بويه ، أما الخليفة فأصبح له كاتب [1] لا يرقى إلى رتبة الوزارة .

(رابعا) أن أسماء الوزراء الاخشيديين لا تذكر فى الطراز . ولا عجب فإنهم كانوا يشدون أزر الأمير ويعاونونه فى الحكم ويعملون عمل الوزير فى دار الخلافة ، بل كان يطلق عليهم هذا الاسم ؛ ولكنهم مع ذلك كانوا لا يقرنون بالوزراء فى دار الخلافة أو فى مصر الفاطمية ، لأن الأمراء الاخشيديين الذين كانوا يستعينون بهم كانوا من الناحية الرسمية على الاقل عمالا للخليفة العباسى وإن تمتعوا بقسط كبير من الاستقلال .

(١) لابن الأثير نص مشهور فى هذا الشأن . قال يصف خلافة المطيع . « وازداد أمر الخلافة ادبارا ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة . وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء . فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير إنما كان له كاتب يدير اقطاعه وإخراجاته لاغير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد . وكان من أعظم الأسباب فى ذلك ان الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها . حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى... الخ » . الكامل ج ٨ ص ١٦٢ .

(٨)

متولى دار الضرب

روى ابن سعيد عن ابن زولاق قصة تحدث فيها عن جشع الاخشيد وحبه المال وأشار إلى حادث وقع له مع صدقة بن الحسن متولى دارالضرب[١] حين قدم إليه ومعه دنانير وسبيكة وأحضر السباكين ليقوموا عيار الدنانير .

والواقع أن مصر أسست فيها دار لضرب النقود على يد أحمد بن طولون[٢] حيث ضربت الدنانير التى عرفت بالأحمدية وامتازت بعيارها الجيد[٣] . ولا عجب فإن السكة كانت تعتبر فى العالم الإسلامى من شارات الملك[٤] . ويبدو أن دار الضرب لم تكن كبيرة أو معقدة فى نظامها . وقد كتب ابن خلدون أن السكة هى « الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه ، فيكون التعامل بها عددا وان لم تقدر أشخاصها يكون بها وزنا. ولفظ السكة كان اسما للطابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهى النقوش المائلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصار علما عليها فى عرف الدول . وهى وظيفة

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣١

(٢) راجع المقريزى : كتاب النقود القديمة الاسلامية (فى النقود العربية وعلم النميات الذى عنى بنشره الأب انستاس مارى الكرملى) ص ٥٤ وأنظر البلوى: سيرة احمد بن طولون ص ١٩٦ و Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 210-211

(٣) المقريزى : المرجع نفسه ص ٥٧

(٤) ابن خلدون : المقدمة (الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به) ص ٢١٨

ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات . ويتقون فى سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة »[١] .

ويبدو أن الختم على الدنانير والدراهم وعيارها كان يقوم به نفر قليل من الموظفين يعرف بعضهم باسم المعدّلين[٢] ويعرف الآخرون باسم السباكين[٣] . ويشرف عليهم متولى دار الضرب[٤] . ولكن الأمير كان يعنى بأعمالهم ويطلب أن يطلع عليها وأن يقوموا ببعضها فى حضرته بين وقت وآخر . وكان الأمير فى بعض الأحيان يعهد بالإشراف على دار الضرب إلى القاضى[٥] .

ويبدو لنا أن موظفى دار الضرب كانوا ينتقلون مع الأمير فى بعض الأحيان أو يلبون طلبه فى موافاته إلى حيث يكون خارج مصر . فإن النقود التى نعرفها من العصر الطولونى مثلا ضربت فى مدن مختلفة مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وانطاكية . والراجح عندنا أن هذه المدن لم يكن فى كل منها دار مستقلة لسبك النقود وإنما كان الأمير يعتمد على الإخصائيين عنده فى هذا الميدان اللهم إلا إذا فوض نائبه ببلد من البلاد فى الإشراف على ضرب النقود فيها أو كان البلد مشهوراً بدار للضرب فيه .

والنقود الاخشيدية التى نعرفها ضربت فى مصر (الفسطاط) وفلسطين (الرملة) ودمشق ويمكن أن نستنبط منها الحقائق التاريخية الآتية :

(أولا) أن الدنانير التى ضربت بمصر فى عهد الخليفة الراضى وولاية محمد بن طغج من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٢٩ كان يذكر فيها اسم الخليفة وحده[٦] مما يشهد بأن الاخشيد كان لايزال يخضع كل الخضوع للخلافة العباسية التابع لها .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١٨

(٢) أنظر انستاس مارى الكرملى : المرجع السابق ص ٣٧

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٣١

(٤) وصلت إلينا عن دار الضرب بايران فى العصر الصفوى بيانات طيبة فى كتاب تذكرة الملوك الذى نشره الاستاذ مينو رسكى (V. Minorsky : Tadhkirat al-Mulūk : A Manual of Safavid Administration ، وانظر أيضاً :

H. L. Rabino di Borgomale : Coins and Seals of the Shahs of Iran pp. 1-5.

(٥) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٢ — ٥٦٣

(٦) Lane-Poole : Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo Nos. 694-706 pp. 89-99

(ثانياً) أن الدنانير التى ضربت بمصر فى عهد الخليفة المتقى وولاية محمد بن طغج سنة ٣٢٩ كان يذكر فيها اسم الخليفة وحده مما يشهد أيضاً بأن الاخشيد كان فى بداية حكم المتقى لايزال يدين للخلافة بالطاعة التامة والتبعية الظاهرة [١] .

(ثالثاً) أن سنة ٣٢٩ كانت فاصلا بين عهدين ، فقد وصل إلينا دينار منها لم ينقش عليه اسم الخليفة وإنما نقش اسم محمد بن طغج وحده ومعه لقب الأمير الاخشيد [٢] . (أنظر اللوحة رقم ١ شكل ١) [٣] . ولسنا ندرى هل حذف اسم الخليفة مقصود أو أن ثمة خطأ فى كتابة هذا الدينار . وإذا كان الحذف مقصوداً فلسنا نستطيع تفسيره إلا بأن الاخشيد فكر فى الاستقلال التام عن الخلافة بعد صلحه مع ابن رائق ثم تبين صعوبة تحقيق ذلك فرجع إلى الوقوف عند الاستقلال الذاتى .

(رابعا) أن السكة التى ضربت للاخشيد بعد سنة ٣٢٩ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المتقى [٤] (انظر اللوحة رقم ١ شكل ٢) [٥]

(١) ibid No. 725 p. 102. Lane Poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 81.

(٢) Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte et Syrie No. 50 pp. 22-23.

(٣) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب سنة تسع وعشرين وثلثماية » . وفى الوسط عبارة « لله الأمير الاخشيد » . وعلى ظهره كتابة دائرية نصها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وفى الوسط عبارة « بالله محمد بن طغج » .

(٤) Lavoix : op. cit. No. 48 et 49 pp. 21-22, Lane-Poole : op. cit. (Catalogue) No. 936 & 937 p. 143.

(٥) على وجه هـذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة اثنين وثلاثين وثلثماية » وفى الوسط عبارة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبو منصور ابن أمير المؤمنين» وكتابة دائرية خارجية نصها « لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

وعلى ظهره كتابة دائرية نصها « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» وفى الوسط « لله محمد رسول الله . المتقى لله الاخشيد » .

(خامساً) أن السكة التى ضربت فى عهد اونوجور من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٧ كان ينقش عليها اسم الخليفة المطيع واسم « أبو القاسم بن الاخشيد »[١] (انظر اللوحة رقم ١ شكل ٣ [٢]) .

(سادساً) أن السكة التى ضربت لعلى بن الاخشيد من سنة ٣٥٠ إلى سنة ٣٥٥ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المطيع [٣] . (انظر اللوحة رقم ١ شكل ٤ [٤])

(سابعاً) أن كافوراً لم ينقش اسمه على السكة [٥] . وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه فى التكييف القانونى للفترة التى حكم فيها مصر بعد وفاة على بن الاخشيد حين كتبنا أنه كان يشعر بما نكاد نصل اليه من النصوص وهو أنه وسط بين الأمير والوصى على العرش .

(ثامناً) أن السكة الاخشيدية بعد وفاة كافور كانت تضرب باسم الخليفة المطيع واسمى الأمير احمد بن على بن الاخشيد وعمه الوصى عليه الحسين بن عبيد الله بن طغج [٦] (انظر اللوحة رقم ١ شكل ٥ [٧] وشكل ٦ [٨]) .

---

(١) Lavoix : op. cit. Nos. 51-56 pp. 23-25. Lane-Poole : op. cit. (Catalogue) Nos 938-942 p. 144, Lane-Poole : History of Egypt p. 86-87.

(٢) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة سبع وثلاثين وثلثمائة » وفى الوسط « أبو القسم بن الاخشيد » وعلى ظهره « لله محمد رسول الله صلى الله عليه المطيع لله » .

(٣) Laviox : ibid No. 57-62 pp. 26-28, Lane-Poole : op. cit. (Catalogue) No. 943-947 p. 145, Lane-Poole : History of Egypt, p. 86-87.

(٤) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة خمسين وثلثمايه » وفى الوسط « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . على ابن الاخشيد » وعلى ظهره فى الوسط « لله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله المطيع لله » .

(٥) Lane-Poole : op. cit. (Catalogue)

(٦) Lavoix ; ibid No. 63-64 pp. 28-29

(٧) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة ثمان وخمسين وثلثمايه » وفى الوسط « لا إله إلا الله وحده لاشريك له الحسين بن عبيد الله » . وعلى ظهره فى الوسط « لله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله المطيع لله احمد بن على » .

(٨) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بفلسطين سنة ثمان وخمسين وثلثمايه » وفى الوسط « الحسين بن عبيد الله » وعلى ظهره فى الوسط « لله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله . المطيع لله . أحمد بن على طغج » .

وهكذا نرى أن دراسة السكة [١] قد تكشف عن أشياء كثيرة توضح الاحداث التى نعرفها من المراجع التاريخية . ولكن مما يؤسف له أن ما نعرفه عن السكة فى العصر الاخشيدى ليس كثيراً . وحسبنا أن نذكر ما اشتهر عن ضرب الدينار الاخشيدى على عيار كامل وعن صلاح النقود فى عهد الاخشيد بعد فسادها [٢] . وكانت العملة الذهبية شائعة فى ديار الاسلام التى كانت فى الجاهلية تحت حكم الرومان [٣] ، وان تكن قد انتشرت فى العراق وشرقى العالم الاسلامى منذ القرن السابع . وكان الدينار فى القرن الرابع يساوى نحو الأربعة عشر درهما [٤] والدرهم ستة دوانق والدانق إثنى عشر قيراطاً [٥] وكانت للمعاملات الضخمة وسائل للدفع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص كالسفاتج والمستندات . وقد مر بنا أن الاخشيد أرسل إلى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة [٦] .

---

(١) أنظر فضلا عن المراجع التى مر ذكرها عن السكة: استانبول موزه ى همايون مسكوكات قديمة إسلامى كتالوجو و

O. Codrington : A Manual of Musulman Numismatics. L. A. Mayer : Bibliography of Moslem Numismatics. India excepted., Lane-Poole : Catalogue of Oriental Coins in the British Museum. H. Nützel : Königliche Museen zu Berlin : Katalog der Orientalischen Münzen.

C. J. Tornberg: Mémoires sur les monnaies des Ikhschidites (dans Nova acta Regiae Societatis scientiarum Upsaliensis, 3e série, vol. 11 p. 48).

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٢ نقلا عن مخطوط كتاب العيون والحدائق (برلين) ورقة ٢٠٩ ب .

(٣) لعل ذلك يرجع إلى أنه كان بين البيزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط وأن يتخذوا العملة البيزنطية الذهبية عملة لهم، ولذلك كانت الدراهم الفضية هى العملة الجارية فى العراق وإيران . أنظر متز : المرجع السابق ج ٢ ص ٣١٦

(٤) متز : المرجع السابق ج ٢ ص ٣١٨

(٥) المرجع نفسه ج ٢ ص ٣١٩

(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢ ومتز : المرجع نفسه ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٠

ولسنا نعرف مكان دار الضرب فى العصر الاخشيدى [١] . ويبدو أنها كانت معطلة حين فتح الفاطميون مصر فأمر جوهر القائد بفتحها وضرب فيها سكة باسم المعز لدين الله [٢] . وقد ظلت هذه الدار تؤدى مهمتها إلى أن أنشئت دار ضرب جديدة فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله [٣] .

(١) وصل الينا من أسماء الموظفين فيها يحيى بن بكر بن رجاء المعدل . أنظر ابن سعيد : المغرب ص ٣١

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٦٤

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٣ وابن سعيد : أخبار مصر ص ٦٢ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٤٥ والقلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٩

obeikandl.com

(٩)

وظائف أخرى وملاحظات عامة على الإدارة

لسنا نريد أن نعرض هنا الوظائف القضائية فسوف نعقد لها بابا مستقلا نتحدث فيه عن القضاء والنظر فى المظالم والحسبة .

ولكننا نتبين من المراجع القديمة والوثائق التاريخية وجود بعض وظائف غير التى تحدثنا عنها . ومن ذلك الوظائف التى تتعلق بالمساجد وإقامة الشعائر الدينية فيها . فكان لكل مسجد إمام معين . ولسنا ندرى هل كان يعينه الأمير أو القاضى . ومن أئمة الجامع العتيق فى العصر الاخشيدى عمر بن الحسن الهاشمى الذى ولى القضاء فترة من الزمن بعد أن كان إماما لجامع عمرو [١] . ومنهم أيضا سليمان بن محمد بن رستم ويبدو أنه كان واسع السلطان فى الشئون القضائية والدينية على عهده [٢] . ومنهم الحسن بن موسى الخياط [٣] .

وفى دار الكتب المصرية بالقاهرة وثيقة على ورق مؤرخة من ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) وتتضمن استئجار خادم لمسجد وتنص على أن أجرته فى السنة ثلاثة دنانير ونصف يقبض فى كل شهر سبعة قراريط وان عليه تنظيف المسجد وإضاءة قناديله وجلب الماء له والقيام بجميع ما يحتاج إليه المسجد . وقد أعطى فضلا عن أجرته مسكنا من بيوت المسجد بالمجان [٤] (أنظر شكل ١) . والمعروف أن أجور المؤذنين

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٤ — ٥٧٥

(٢) المرجع نفسه ص ٥٤٣ و٥٥٢ و٥٦١ و٥٦٨ ، أنظر أيضاً ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٤٣

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ١٩

(٤) Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library II pp. 104-105.

وخدم المساجد والكنائس كانت تدفع من إيراد بيوت وحوانيت يوقفها أهل الخير لهذا الغرض [١] .

شكل (١) وثيقة بردية من سنة ٣٥٦ هـ محفوظة بدار الكتب المصرية
[عن جرومان]

وثمة وظائف لا تتحدث عنها المراجع التى كتبت عن العصر الاخشيدى ولكن الراجح عندنا أنها كانت موجودة فى ذلك العصر .

ومن ذلك الموظفون الذين ينظرون فى جوازات السفر والجمارك ، فقد عرفتهم مصر قبل العصر الاخشيدى . وقد كتب ابن الداية أن موسى بن طولون عندما غضب من أخيه أحمد ذهب إليه حانقا وطلب منه جوازا للسفر حتى يترك الديار المصرية [٢] . كما كتب المؤلف

(١) Grohmann : op. cit. 11. p. 88.
(٢) Ibn Said—Vollers : Fragmente p. 13.

نفسه أن تاجراً كان قد اشترى من أحد اتباع ابن طولون عبداً بمائتى دينار ثم حصل على جواز سفر له ولخادم معه . وكان فى العريش على الحدود بين مصر وفلسطين موظف مختص بفحص جوازات السفر والأمتعة التى يحملها المسافرون . ولما رأى الموظف جواز سفر التاجر اعتقد أن الخادم يلزمه جواز سفر مستقل وقائم بذاته ولم يقبل أن يسمح بالمرور للتاجر وتابعه إلا بعد وصول البيانات التى طلبها عن موضوعهما من الفسطاط . والواقع أنه كتب إلى ابن طولون نفسه يشرح له المسألة . وأمر الأمير باستدعاء التاجر وسأله عن مصدر العبد وعرف أنه اشتراه من أحد أتباعه فأمر باعطائه جواز سفر قانونى . وطالب التاجر بنفقات قدومه من الحدود وعودته إليها قائلا انه انفق فى ذلك عشرة دنانير فأمر ابن طولون بدفعها اليه[١] .

وفضلا عن ذلك فقد كان الجيش الاخشيدى يحتاج إلى دار كبيرة للصناعة تمده بالمعدات اللازمة وكان لهذه الدار مدير وموظفون . وكان للأمراء الاخشيديين سجون يتولى إدارتها موظفون موثوق فى إخلاصهم . ومع أن الادارة فى العصر الاخشيدى لم تكن فى حاجة إلى إدارة حكومية معقدة فالراجح أنه كان للأمراء الاخشيديين كل مايلزمهم لاستغلال البلاد والعمل على استقرار الأمن فيها . ولكن ليس من اليسير دراسة الوظائف العامة فى ذلك العصر دراسة دقيقة لنقص البيانات التى نجدها فى المراجع التاريخية . وعلى كل حال فان السلطة التنفيذية كانت فى يد الأمير أو من يفوضه فى القيام بعمل من الأعمال العامة باشرافه أو تحت مراقبة من يندبه الأمير لهذا الاشراف وكان الأمير مصدر السلطات يعين الموظفين ويعزلهم حين يشاء .

وطبيعى أنه كان للموظفين دواوين يديرون منها دفة أعمالهم . وفى مجموعة الارشيدوق راينر فى ڤينا وثيقة من ورق مؤرخة سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) تتضمن استدعاء رجل اسمه جورجيوس للقدوم إلى الديوان قبل مضى ساعة من الزمن[٢] .

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٢ — ٥٣ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ و Zaky Hassan : Les Tulunides p. 207-209

(٢) Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung No. 1059 p. 257

وأكبر الظن أن المقصود هنا ديوان الخراج وأن الرجل كان مطلوبا لسؤاله عن مال متأخر عنده من الضرائب المفروضة عليه .

وقد كتب ابن سعيد والمقريزى أن الاخشيد أول من رتب الرواتب فى مصر [١] . ولسنا نظن أن المقصود بذلك أن الاخشيد أول من جعل للموظفين رواتب يتقاضونها من الدولة ، لأن مثل هذا الزعم بعيد عن الدقة ، فقد كان لكثير من الموظفين فى فجر الإسلام أرزاق ورواتب من بيت المال [٢] . والراجح عندنا أن متز [٣] وغيره ممن فهموا النص على هذا النحو قد أخطأهم التوفيق وأن المراد بالرواتب هنا ما كانت الدولة تجريه على الفقراء والمحتاجين ، وكان من بينهم طائفة من الأشراف والذين حل بهم الفقر بعد النعمة ، وذلك على نحو ماتفعله وزارة الأوقاف وبعض جهات البر فى زماننا هذا .

والواقع أن نص المقريزى فى هذا الشأن يفهم منه التفسير الذى نذهب إليه . فقد كتب هذا المؤرخ « والاخشيد أول من عمل الرواتب بمصر . وكان كاتبه ابن كلا قد عمل تقديراً عجز فيه المرتب عن الارتفاع مائتى ألف دينار . فقال الاخشيد: كيف نعمل؟ قال : حط من الجرايات والأرزاق فليس هؤلاء أولى من الواجب . فقال : غداً تجيئنى وتدبر هذا . فلما أتاه من الغد قال له الاخشيد : قد فكرت فيما قلت ، فاذا أصحاب الرواتب الضعفاء ومنهم المستورون وأبناء النعم ، ولست آخذ هذا النقص إلا منك . فقال ابن كلا : سبحان الله! فقال : تسبيحاً ! وما زال به الاخشيد حتى أخذ خطه بالقيام بذلك » [٤] ثم كتب المقريزى بعد ذلك : « بلغت الرواتب فى أيام كافور الاخشيدى خمسمائة ألف دينار فى السنة لأرباب النعم والمستورين وأجناس الناس ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين فى الأعمال »[٥].

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٩ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣١٧ و ٣٥٤ و ٣٦٩ و ٤٢١ و ٤٣٥

(٣) ساق متز هذا النص عند الكلام على رواتب الموظفين فى العالم الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى (الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٣٤ — ١٣٥) .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٥) المرجع نفسه ج ١ ص ٩٩

ولسنا نعرف عدد الأيام التى كان يعملها الموظفون فى الأسبوع فى العصر الاخشيدى . ونذكر فى هذه المناسبة أن الخليفة العباسى المعتضد بالله (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) أمر بتعطيل دواوين الحكومة يومى الجمعة والثلاثاء، لأن يوم الجمعة يوم صلاة، ولحاجة الناس فى وسط الأسبوع إلى الراحة والنظر فى أمورهم والتشاغل بما يخصهم [١] . ولكنا لم نستطع أن نتبين فى المراجع التاريخية التى بين أيدينا هل كان هذا النظام مطبقا فى مصر على عهد الاخشيديين أو كانت العطلة الأسبوعية فى يوم الجمعة فحسب .

والراجح عندنا أن الأمراء الاخشيديين كانوا يولون بعض المناصب لمن يدفع لهم فى بعض الأحيان من المال والهدايا ما يؤيد به ترشيحه. ولم يكن هذا غريبا على الإدارة الإسلامية عامة فى هذا العصر ، فقد عرفنا أن معز الدولة فى بغداد كان يبيع مناصب الحسبة والشرطة سنة ٣٥٠ هـ بل انه قلد عبد الله بن الحسن بن ابى الشوارب القضاء بعد أن تعهد هذا القاضى بأن يحمل كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتى ألف درهم وكتب على نفسه بذلك سجلا أو وثيقة [٢] .

بقى أن نذكر أن دار الأمارة على عهد الاخشيديين كانت فى العسكر . والواقع أن العسكر كانت مقر الحكم فى مصر منذ شيدها أبو عون الوالى العباسى سنة ١٣٣ هـ إلى أن شيد ابن طولون القطائع . ولما سقطت الدولة الطولونية وخرب محمد بن سليمان القطائع أقام الولاة بعد ذلك فى العسكر . ويقال إنه كان بالعسكر دار عظيمة بناها بدر الحفيفى غلام احمد بن طولون . وقد نزل فيها محمد بن سليمان ومن خلفه من الولاة ثم سكنها الأمراء الاخشيديون ووسعها محمد بن طغج ونزل فيها أيضا الخلفاء الفاطميون [٣] .

---

(١) هلال الصابى : تاريخ الوزراء ص ٢٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٨

(٣) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٢٧ — ٣٣٠

obeikandl.com

الباب السادس

القضاء والمظالم والحسبة

obeikandl.com

obeikandl.com

القضاء والمظالم والحسبة

كان القضاء فى الدولة الاسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة [١] ، فكان الخليفة هو الذى يعين القاضى فى مصر منذ فتحها العرب إلى العصر الطولونى [٢] ، وفى بعض الأحيان كان والى مصر يعين القاضى ثم يقره الخليفة على ذلك [٣] .

ولما قدم ابن طولون الى مصر وجد بكار بن قتيبة قاضياً فيها منذ أرسله الخليفة المتوكل سنة ٢٤٦ هـ [٤] ، فاستمر على القضاء . وحين طالبه ابن طولون بلعن الموفق على المنابر وامتنع بكار عن ذلك عزله ابن طولون وسجنه فى سنة ٢٧٠ هـ [٥] .

ويظهر أن ابن طولون فعل ذلك بموافقة الخليفة ، لأن المعتمد كان قد أرسل كتابا إلى ابن طولون وهو بدمشق يذكر فيه خلع الموفق من ولاية العهد . وأجاب القضاة كلهم إلى خلعه إلا بكاراً فإنه سمى الخليفة « الناكث » . ويقال ان ابن طولون أرسل إلى بكار مرة وهو فى السجن يقول : « كيف رأيت المغلوب المقهور لا أمر له ولا نهى ولا تصرف فى نفسه ! ولا تزال هكذا حتى يرد علىّ كتاب المعتمد باطلاقك » [٦] .

وهكذا نرى أنه بالرغم من استقلال مصر الذاتى فى عهد الطولونيين فان أمر القضاء كان لا يزال مرجعه إلى الخلافة . وقد توفى بكار بعد وفاة ابن طولون بعدة أيام ، وذلك فى سنة ٢٧٠ هـ وخلفه فى القيام بأعمال القضاء ابن شاذان الجوهرى نحو ثلاث سنين

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٢ — ١٨٣ (الفصل الحادى والثلاثون فى الخطط الدينية الخلافية) .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٠٠ و ٣٠١ و ٣٠٣ و ٣٤٠ و ٣٦٨

(٣) المرجع نفسه ص ٣٤١ — ٣٤٣ و ص ٣٨٥

(٤) المرجع نفسه ص ٤٧٦

(٥) المرجع نفسه ص ٤٧٧ و ٤٧٨

(٦) المرجع نفسه ص ٥١٢ — ٥١٤

دون أن يكون له لقب القاضى . ثم عين خمارويه محمد بن عبدة للنظر فى المظالم . وكان له كل اختصاص القاضى . وظل محمد بن عبدة بن حرب ينظر فى المظالم نحو أربع سنين ثم ولى القضاء فى سنة ٢٧٨ هـ من قبل الخليفة المعتمد . وذلك بعد أن تعطل منصب القضاء نحو سبع سنين [١] .

وقام ابن عبدة بمنصب القضاء حتى قتل خمارويه وخلع ابنه جيش وقتل فى سنة ٢٨٣ هـ . وحينئذ اختفى ابن عبدة ولم يظهر فى الحياة العامة إلا بعد سقوط بنى طولون . وظلت مصر بغير قاض إلى أن ولى هارون بن خمارويه أبا زرعة محمد بن عثمان الدمشقى القضاء فى سنة ٢٨٤ هـ . ويقال ان الذى ولاه هو الخليفة المعتضد [٢] .

ولما سقطت الدولة الطولونية اتصل محمد بن عبدة بالقائد محمد بن سليمان فولاه القضاء والمظالم فى ربيع الأول من سنة ٢٩٢ هـ [٣] ثم خلفه آخرون فى هذا المنصب إلى أن تقلده محمد بن موسى السرخسى فى وبة تكين .

ولما عزل السرخسى عن القضاء فى شوال من سنة ٣٢٣ هـ تقلده محمد بن بدر الصيرفى من قبل الخلافة ، وبمعنى أدق من قبل قاضى القضاة فى بغداد ، وهو فى ذلك الحين محمد بن الحسن بن ابى الشوارب . وكان الراضى قد ولاه قضاء بغداد وسائر الممالك فكان ينيب عنه من يشاء .

ثم ولى القضاء بعد ذلك من قبل قاضى القضاة فى بغداد أيضا عبد الله بن احمد بن زَبر ولكن هذا الأخير كتب إلى أبى الحسن على بن احمد بن اسحق وإلى أبى العباس يحيى بن الحسن بن الأشعث لينظرا فى قضايا الناس بالنيابة عنه . فتسلم هذان الاخيران القضاء فى شوال من سنة ٣٢٤ هـ [٤] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥١٣ و ٥١٥ و Zaky M. Hassan : les Tulunides p. 224

(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٤٧٩ و ٤٨٠ و ٥١٨ و ٥١٩

(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٠ و ٤٨١

(٤) المرجع نفسه ص ٤٨٦ و ٤٨٧ و ٥٥٠

وكان فى مصر حينذاك الحسين بن محمد بن ابى زرعة الدمشقى وكان يطمع فى قضاء مصر ، فسأل الاخشيد فى ذلك . ويبدو أنه قدم له بعض المال أو الهدايا [١] فأوقف الاخشيد خليفتى عبد الله بن احمد بن زبر من النظر فى القضاء فى ذى القعدة من سنة ٣٢٤ هـ وولى الحسين بن أبى زرعة على أن ينظر محمد بن احمد بن الحداد فى القضاء حتى يرد الكتاب من بغداد بولاية ابن أبى زرعة [٢] . والراجح أن اختيار ابن الحداد للنيابة يرجع الى أنه كان معروفا بالعلم الواسع حتى سمى « فقيه الديار المصرية » [٣] .

وظل أبو بكر بن الحداد ينظر في قضايا الناس فى داره وفى الجامع حتى ورد تقليد ابن أبى زرعة على القضاء من قبل ابن أبى الشوارب قاضى قضاة بغداد فى سنة ٣٢٥ هـ [٤] .

وكانت المدة التى قضى فيها ابن الحداد بين الناس ستة أشهر وقد أنشد بعض الشعراء أبياتاً يتهكمون فيها على ابن الحداد ويشيرون إلى قيامه بأعمال القضاء دون تقليد رسمى . ومن تلك الأبيات :

قولوا لحدادنا الفقيه العالم النابه الوجيه
والمسقع المستطيل لولا مافيه من نخوة وتيه
حكمت حكما بغير عقد وغير عهد نظرت فيه [٥]

وظل الحسين بن أبى زرعة ينظر فى القضاء إلى أن توفى فى ذى الحجة من سنة ٣٢٧ هـ .

---

(١) أو « بذل له » على حد قول ابن برد فى ذيل الولاة والقضاة للكندى ص ٤٨٧
(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٤٨٧
(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٣ ، راجع عن تقوى ابن الحداد وورعه ، ابن سعيد : المغرب ص ١٨
(٤) وقيل ان هذا التقليد جاء فى شوال من سنة ٣٢٤ هـ ، أنظر الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٢
(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٨٧ و ٤٨٨

والظاهر أن ابن أبي الشوارب قاضي قضاة بغداد عُزل في سنة ٣٢٧ هـ وولي بدلا منه أبو نصر يوسف بن عمر بن أبي عمر — وكان في نحو العشرين من عمره — فكتب هذا الأخير إلى ابن أبي زرعة يقره على قضاء مصر . فقرأ الحسين بن أبي زرعة كتابه على الناس في داره .

ثم ولي قضاء مصر محمد بن بدر الصيرفي مرة ثانية من قبل ابن أبي الشوارب الذي كان قد عاد إلى منصب قاضي القضاة في بغداد وظل ابن بدر في منصبه من ذي الحجة سنة ٣٢٧ هـ إلى صفر من سنة ٣٢٩ وأقر ذلك محمد بن طغج [١] .

وفي هذه الأثناء سعى عبد الله بن شعيب ، المعروف بابن وليد أو ابن أخت وليد ، في ولاية قضاء مصر واستعان للوصول إلى غرضه بمال قدم لابن أبي الشوارب ، فكتب ابن أبي الشوارب بولايته القضاء وذلك في شهر رمضان من سنة ٣٢٨ هـ ، ومن ثم توجه ابن وليد إلى الحسين بن عيسى بن هروان من وجهاء القوم ، وكان بمصر حينذاك ، فأقرأه عهد القضاء وطلب منه أن يعينه على تولي هذا المنصب [٢] .

وهكذا نرى أن منصب القضاء أصبح ، كمنصب الولاية والامارة ، لا يكتفى فيه بعهد الخليفة أو من يفوض إليه الخليفة هذا الأمر ، بل يبقى على القاضي الجديد أن يتمكن من مباشرة عمله . ولذا نرى عبد الله بن وليد يطلب معونة الحسين بن عيسى بن هروان كما نراه يستعين بأبي المظفر الحسن بن طغج ، وكان يخلف أخاه الاخشيد مدة غيبته لقتال ابن رائق .

ولكن الظاهر أن عبد الله بن وليد لم يستطع بالرغم من هذا كله أن يتسلم القضاء من محمد بن بدر . وظهر في ذلك الوقت طامع آخر في القضاء : هو الحسين بن عيسى ابن هروان الذي عمد إلى رشوة الحسن بن طغج كي يساعده في تولي القضاء وليكاتب الاخشيد في ذلك على أن يخلفه محمد بن بدر في مباشرة القضاء . ووافق الاخشيد

(١) الكندي : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٤٨٨ و ٥٦٣ و ٥٦٤

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٠ و ٥٦١ و ٥٦٤

على أن يتولى القضاء محمد بن بدر نيابة عن الحسين بن عيسى فوافق ابن بدر على ذلك . ويقال ان هذا الأمر شق على ابن وليد حتى مرض وأشرف على الموت [١] .

وهكذا نتبين أن الاخشيد استطاع أن يتحدى قاضى قضاة بغداد وهو المفوض من قبل الخلافة فى تعيين قضاة مصر . كما نلمس أن منصب القضاء أصبح مجالا للتنافس وصارت تبذل فى سبيل توليه الأموال والرشاوى . والواقع أن هذا التحدى لم يستطع مثله الأمراء فى عصر بنى طولون . وهو يرجع قبل كل شىء الى الفوضى التى كانت تسود الخلافة فى بغداد والى أن قاضى القضاة فيها لم يعد فوق الشبهات ، بل كان تقليده هذا المنصب محلا للطعن والشكوك فى بعض الأحيان ، ولذلك كان تفويضه وتوليته غيره من قبله أمراً يمكن تحديه ووقف تنفيذه .

ثم ولى القضاء بمصر عبد الله بن أحمد بن زبر من قبل قاضى القضاة فى بغداد . فدخل الفسطاط فى سنة ٣٢٩ هـ وأقر الاخشيد ولايته ولكنها لم تدم إلا شهراً واحداً وأياماً، مرض بعدها وتوفى فى سنة ٣٢٩ هـ [٢] . وكانت هذه هى المرة الرابعة التى ولى فيها ابن زبر قضاء مصر والمرة الثانية التى ولى فيها قضاء مصر فى عصر الاخشيديين .

وبعد وفاة ابن زبر قلد الاخشيد الحسين بن عيسى بن هروان القضاء وفى بعض الروايات أن عبد الله بن وليد سعى ليتولى قضاء مصر بعد وفاة ابن زبر وأنه تقلد هذا المنصب من قبل الحسين بن عيسى بن هروان ثم عزل فى شوال من سنة ٣٢٩ هـ [٣] . وفى رواية أخرى أن ابن وليد تقلد قضاء مصر فى سنة ٣٢٩ هـ وعزل فى سنة ٣٣٠ هـ [٤] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦١

(٢) المرجع نفسه ص ٤٨٨ و ٤٨٩ و ص ٥٦١ ، وأنظر فى هذا المرجع (ص ٥٤٢ و ٥٤٣) قصة تشير إلى أن ابن زبر تقلد قضاء مصر للمرة الأخيرة بحيلة احتالها على الاخشيد وذلك بتزوير كتاب تفويض للقضاء من ابن أبى الشوارب إلى عبد الله بن احمد بن وليد .

(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٩ و ٤٩٠ و ٥٦٤ و ٥٦٥

(٤) المرجع نفسه ص ٥٦٥

وبعد ذلك ورد كتاب من الحسين بن عيسى بن هروان إلى الاخشيد يذكر فيه أنه ولّى القضاء محمد بن بدر الصيرفى . ويقال ان ابن أبى الشوارب قاضى قضاة بغداد عزل حينئذ عن القضاء وخلفه أحمد بن عبد الله بن اسحق فأقر الحسين بن عيسى على القضاء ، على أن يكون محمد بن بدر نائباً عنه بمصر [١] فكانت هذه هى المرة الثالثة التى ولى فيها محمد بن بدر قضاء مصر فى عصر الاخشيديين . وقد ظل محمد بن بدر أحد عشر شهراً فى ولايته حتى توفى فى شعبان سنة ٣٣٠ هـ [٢] .

أما عن الحسين بن عيسى بن هروان الرملى فالروايات بشأن توليته القضاء متضاربة . وقد ذكرنا أن الاخشيد ولاه القضاء فى سنة ٣٢٨ هـ وولاه أيضاً بعد وفاة ابن زبر . ولكن فى بعض الروايات أنه ولى القضاء من قبل الخليفة أو قاضى القضاة فى بغداد [٣] .

والراجح عندنا أن الاخشيد هو الذى ولاه قضاء مصر . فكان يستخلف من يشاء ، لأنه لم يكن فقيهاً ولم يكن يصلح لتولى الأحكام ، وإنما سعى إلى المنصب طلباً للجاه ولا سيما أنه كان غنياً عظيم الثروة [٤] . وكان بعد تقلده القضاء حريصاً أشد الحرص على الاحتفاظ بهذا المنصب .

ويقال انه لما مرض محمد بن بدر الصيرفى مرضه الأخير استخلف أبا الذكر محمد بن يحيى الأسوانى [٥] فى النظر فى الأحكام . ولما مات ابن بدر فى شعبان سنة ٣٣٠ استبقى الاخشيد أبا الذكر للقيام بأعباء منصب القضاء بضعة أيام إلى أن جاء كتاب الحسين بن عيسى بن هروان باستخلاف الحسن بن عبد الرحمن بن اسحق الجوهرى على القضاء . وذلك فى رمضان سنة ٣٣٠ هـ [٦] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٦
(٢) المرجع نفسه ص ٤٨٩ و ٤٩٠ و ٥٦١
(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٤
(٤) الموجع نفسه ص ٥٦٤
(٥) أنظر الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٦٤
(٦) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٣٣

وما لبث الحسن بن عبد الرحمن الجوهرى ان أبعد عن القضاء . ويقال ان السبب فى عزله خلاف وقع بينه وبين بكران الصباغ . وكان بكران من الشهود العدول[١] . فذهب الأخير إلى الاخشيد فى دمشق واتفق معه ومع الحسين بن عيسى بن هروان على عزل الحسن بن عبد الرحمن الجوهرى عن القضاء وعن تولى الأحباس . فاستخلف الحسين ابن عيسى بن هروان أبا الفضل الكشى على الأحكام وفوض أمر الأحباس وتولية قضاء النواحى إلى بكران الصباغ[٢] .

ولكن الاخشيد أبعد الكشى عن النظر فى الأحكام بعد ثلاثة أشهر وولى عبد الله ابن أحمد بن وليد خليفة للحسين بن هروان وذلك فى رجب سنة ٣٣١ هـ[٣] . وسبب هذا العزل المنافسة القوية التى قامت بين بكران الصباغ وبين الكشى وأسفرت عن اضطراب الأمور . فشكا الناس إلى الاخشيد فاستاء وأمر باحضار بكران ووبخه على ذلك ثم عزله هو والكشى عن الحكم . واستشار وجوه الناس فأشاروا عليه بتولية عبد الله بن وليد فولاه الاخشيد خلافة للحسين بن عيسى[٤] .

ولم يزل ابن وليد يتولى القضاء حتى جاء ابن هروان نفسه إلى مصر ويقال انه قدم مصر فى آخر رجب من سنة ٣٣٣ هـ[٥] . واصبح ابن وليد فى بعض الأحيان ينظر فى الأحكام فى حضرة ابن هروان نيابة عنه . ثم بلغ ابن هروان أن ابن وليد كان يذكر أن ولايته على القضاء من قبل الخليفة المستكفى نفسه وليست من قبل ابن هروان ، فعزله عن القضاء فى جمادى الأولى من سنة ٣٣٣ هـ[٦] . وفى بعض الروايات أن الحسين ابن عيسى بن هروان علم أن عبد الله بن وليد أرسل يلتمس من بغداد كتابا بولايته

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٢

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧١

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٠

(٤) المرجع نفسه ص ٥٧٣

(٥) يروى ان وفاته كانت فى دمشق سنة ٣٣٤ هـ أنظر الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٤ و ٥٦٥

(٦) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٤٩١

قضاء مصر استقلالا من قبل الخليفة . فقال له الحسين بن هروان « ما هذا الذى بلغنى عنك ! ؟ والله لونازعنى أحد فى القضاء لبذلت فى إتلاف روحه مثل هذا الجرن ذهباً ! [١] » ثم استخلف ابن هروان الحسن بن عبد الرحمن الجوهرى على القضاء ولكن الأخير مرض بعد أيام فعزله ابن هروان وولى القضاء محمد بن احمد بن الحداد فى جمادى الأولى من سنة ٣٣٣ هـ [٢] .

ولما غادر ابن هروان مصر أظهر عبد الله بن وليد كتابا من الخليفة المستكفى بتوليته قضاء مصر . وقد ساعده على تولية القضاء محمد بن على بن مقاتل وزير الاخشيد، فعزل ابن الحداد عن القضاء فى أواخر المحرم من سنة ٣٣٤ هـ .

والظاهر أن ولاية عبد الله بن وليد القضاء من قبل الخليفة المستكفى جاءته من بغداد قبل هذا الوقت ولكنه أخفى كتاب التقليد خوفا من ابن هروان لأنه كان خليفته . ولما غادر ابن هروان مصر إلى الشام أظهر عبد الله بن وليد الكتاب وعضده فى موقفه هذا ، الوزير ابن مقاتل [٣] .

ويقال ان سعيد بن عبدان التاجر هو الذى سعى لابن وليد فى ولاية القضاء لدى الخلفية المستكفى. وقد ظل ابن وليد يخشى الحسين بن هروان برغم خروجه من مصر. ولم يأمن على نفسه ويطمئن إلى استقرار الأمر له إلا بعد أن جاءه الخبر بموت ابن هروان [٤] .

ويقال فى استقلال ابن وليد بالقضاء إنه أخرج « كتابا زعم أنه من المستكفى » . أى أن كتاب الخليفة مشكوك فى صحته .

ومهما يكن من الأمر فان ابن وليد استطاع أن يحصل على مساعدة من الوزير محمد بن على بن مقاتل فى تقليد القضاء واستعان ابن وليد على ذلك بالأموال والرشوة .

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٦ و ٥٦٧
(٢) المرجع نفسه ص ٤٩١
(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٢
(٤) المرجع نفسه ص ٥٦٧ و ٥٦٨

وأفلح هو وابن مقاتل فى إقناع الاخشيد، فأمر الاخشيد بتقليده القضاء من قبل الخليفة وتسلم له أخو الاخشيد أبوالمظفر الحسن من ابن الحداد[١] .

وقد شق ذلك على ابن الحداد ، فكتب إليه الحسين بن عيسى بن هروان يهون عليه الأمر ووعده بالانتقام من ابن وليد[٢] .

ثم ولى الخليفة المطيع محمد بن الحسن العباسى الهاشمى منصب قاضى القضاة ببغداد وقضاء مصر والرملة وطبرية والاسكندرية . وكتب محمد بن الحسن الهاشمى إلى ابن وليد يقره على القضاء ، ولكنه ما لبث أن أناب عنه أخاه عمر بن الحسن الهاشمى ليتولى قضاء مصر وذلك فى رجب سنة ٣٣٦ . ويقال إن الشهود وعلى رأسهم يحيى بن مكي بن رجاء حسنوا لعمر الهاشمى ولاية القضاء نيابة عن أخيه . ويبدو أن كافورا وافق على ذلك بعد أن قدم إليه الهاشمى مبلغا من المال . وقد ظل عمر بن الحسن الهاشمى قاضيا لمصر مدة ثلاث سنوات ونصف أى إلى ذى الحجة سنة ٣٣٩هـ ، ثم عزل بعدها عن القضاء . ويقال انه لم يعزل بل طلب أن يعفى من المنصب فأجيب إلى طلبه .

وحدث بعد ذلك فى بغداد أن قلد الخليفة المطيع قضاء مصر وأعمالها والرملة وبعض الشام لمحمد بن صالح بن أم شيبان ، فعين هذا الأخير عبد الله بن محمد بن الخصيب أو الخصيبى خليفة له بمصر فولى قضاءها فى النصف من ذى الحجة سنة ٣٣٩ هـ . وظل الخصيبى ينظر فى القضاء هو وابنه إلى أن مرض وتوفى فى المحرم سنة ٣٤٨ هـ .

وبعد وفاته حل ابنه محمد بن عبدالله بن الخصيب محله فى القضاء خليفة لابن أم شيبان أيضاً وبأمر كافور الاخشيدى ولكنه توفى بعد شهر وبضعة أيام[٣] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٧

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٧

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٢ و ٤٩٣ و ص ٥٦٨ و ٥٦٩ و ص ٥٧٣ — ٥٧٦

ومما يلفت النظر فى ولاية عبد الله بن محمد بن الخصيب وابنه ما يقال من أن عبد الله الخصيبي أحضر عهدا من الخليفة فحواه أن يكون ولده محمد بن عبدالله نائبا عن محمد بن صالح ابن أم شيبان، وأن يكون العهد باسمه، أما هو فيكون ناظرا على ابنه [١].

ولما مات محمد بن عبد الله الخصيبي سعى ابن وليد لدى كافور لتولى منصب القضاء وبذل لكافور مالا فى هذا السبيل، ولكن مستشارى كافور نصحوه برفض طلبه فعين كافور على القضاء أبا الطاهر الذهلى [٢]. ونلاحظ أن تولية أبى الطاهر كانت باتفاق أهل الرأى فى الدولة أو أهل الشورى الذين أثنوا عليه عند كافور [٣].

ويظهر أن كافورا لم يكن يرغب فى توليه القضاء بادئ ذى بدء، إذ أنه قبل أن يأتى إلى مصر فى سنة ٣٤٠ هـ كان قاضيا فى دمشق وشكاه أهلها إلى الخليفة المطيع وأيدهم كافور فى ذلك فعزل الخليفة هذا القاضى. ولذا رفض كافور أن يقلده القضاء فى مصر، وعين عثمان بن محمد بن شاذان قاضى الرملة بعد أن سعى له فى ذلك الوزير جعفر بن الفضل وفى تلك الأثناء أشيع ان ابن شاذان توفى فسعى عبد الله بن وليد للحصول على هذا المنصب كما ذكرنا. ويقال انه بذل لكافور نحو ثلاثة آلاف دينار. ولكن كافورا لم تلن قناته بل رضخ لتوصية أهل الشورى وعين أبا الطاهر الذهلى [٤]. وظل أبو الطاهر على القضاء حتى فتح الفاطميون مصر [٥].

وهكذا يتبين لنا أن أمر القضاء فى مصر كان إلى الخليفة أو إلى قاضى القضاة فى بغداد وهو الذى يفوض اليه الخليفة تعيين القضاة فى الأقاليم ولكننا نلاحظ أنه كان لا بد للقضاة — فضلا عن ذلك — من الحصول على موافقة الأمير الاخشيدى. وكان الأمير الاخشيدى فى بعض الحالات يولى القضاء لمن شاء بدون موافقة الخليفة.

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٧

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧٠

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٣

(٤) المرجع نفسه ص ٥٨٣

(٥) المرجع نفسه ص ٤٩٣

ومما يستحق النظر أن العلماء والفقهاء — بله من دونهم مرتبة فى العلم أو من لا علم عنده مثل ابن هروان — كانوا يتهافتون على ولاية القضاء فى هذا العصر حتى أنهم كانوا يعمدون فى سبيل الوصول إلى هذا المنصب ، إلى رشوة الأمراء الاخشيديين وذوى النفوذ فى الدولة الاخشيدية ، وإلى رشوة أولى الأمر فى الخلافة ولا سيما قاضى قضاة بغداد وهذه ظاهرة لم نعرفها قبل العصر الاخشيدى ولا نستطيع تعليلها تعليلا واضحاً ، ولعلها ترجع إلى أن منصب القضاء كان من المناصب الخطيرة فى الدولة ، فضلا عن أن القاضى كان يستطيع أن يستغل منصبه فى جمع الثروة وذلك بقبول الرشوة او بوضع يده على ما يريد من أموال الاحباس .

وقد رأينا كيف كان التهافت على هذا المنصب . ونضيف هنا عدة حوادث تؤكد الاقبال على تولية القضاء والسعى إلى ذلك بكافة الوسائل ، فقد مر بنا أن عبد الله بن وليد القاضى كان يتهافت على هذا المنصب وعرفنا أنه شغله ثلاث مرات . ويقال انه عند ما سعى اليه للمرة الأولى ولم يفلح شق عليه ذلك ومرض حتى أشرف على الموت . ووصلت تلك الأخبار إلى العامة فكانوا يتندرون بحالته وينظمون الكلام فى التهكم عليه ومن ذلك قولهم : « عبد الله بن وليد أبرد من حديد ! عبد الله بن وليد هو وارب[1] شهيد ! »[2] .

ورأينا أيضاً كيف عمل بكران بن الصباغ على اقصاء الحسن بن عبد الرحمن الجوهرى عن ولاية القضاء والتمس لنفسه ولاية الأحباس . ولما أجابه الحسين بن هروان إلى طلبه ، بدأ بكران بن الصباغ يعمل على الايقاع بأحمد بن عبد الله الكشى الذى فوض اليه ابن هروان النظر فى الأحكام . ويقال إن هذه الحالة بلغت حداً من السوء « اضطرب معه أمر البلد » وطبيعى أن المقصود بالاضطراب هنا اضطراب الأحكام واضطراب أمور القضاء بسبب التنافس بين الرجلين . وقد عرفنا أن الاخشيد استاء من هذه الحالة وعزل بكران بعد أن وبخه على تصرفه كما أبعد الكشى أيضاً عن القضاء[3] .

---

(١) الوارب المخاتل الداهية .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦١

(٣) المرجع نفسه ص ٥٧٣

وعرفنا أنه عندما تقلد عمر بن الحسن الهاشمي القضاء بعد عزل عبد الله بن وليد في رجب سنة ٣٣٦ هـ تخاصم الرجلان ووصل حديث النزاع بينهما إلى الأمير أبي القاسم أونوجور وإلى الأستاذ كافور. وادعى عمر الهاشمي أن ابن وليد يتصرف في أموال كثيرة لا صاحب لها فاعتقله كافور، ولكن الهاشمي ووجوه الناس شفعوا فيه حتى أطلق سراحه [١].

وحينما تولى محمد بن صالح بن أم شيبان قضاء القضاة ببغداد استخلف عبد الله ابن وليد على قضاء مصر وكتب إليه بذلك. ولكن بقي الحصول على موافقة كافور على هذا التعيين، فذهب جماعة من الفقهاء والعلماء إلى هذا الأمير وحسنوا له ولاية ابن وليد فوعدهم خيرا. ثم تبعهم جماعة آخرون من بينهم ابن الحداد والهاشمي وأبو جعفر مسلم العلوي وتقدموا إلى الأمير بألا يوافق على تولية ابن وليد. وانتهى الأمر بأن ولى كافور عبد الله بن محمد بن الخصيب القضاء نيابة عن محمد بن صالح ابن أم شيبان [٢]. ويظهر أن الخصيبي استطاع أن يتقرب إلى كافور بما كان يقدمه له من المال [٣].

والغريب في ولاية هذا القاضي ما يقال عن ورود كتاب من الخليفة المطيع بتولية محمد بن عبد الله بن الخصيب القضاء من قبل محمد بن صالح بن أم شيبان وأن يكون الأب ناظرا على ابنه. ويقال ان الخصيبي نفسه كان يقول: « العمل لابني محمد وأنا له معين » [٤].

وقد بلغ التنافس في القضاء أشده بين الأب والابن فكان الابن يريد أن يوقع كل التوقيعات باسمه ويعزل ويولى دون أن يرجع إلى أبيه ويشترط على الكتّاب ألا يكتبوا

(١) الكندي: الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٥
(٢) المرجع نفسه ص ٥٧٦ و٥٧٧
(٣) المرجع نفسه ص ٥٧٨
(٤) المرجع نفسه ص ٥٧٧ و٥٧٨ و٥٨٠. وفي روايات أخرى أن محمد بن عبدالله كان ينوب عن أبيه أو انه كان يقضي بمصر خليفة لأبيه في حياته وأبوه يحضر معه، المرجع نفسه ص ٥٨١

إلا للقاضى « محمد بن عبد الله » . ويقال ان الخلاف زاد بين الأب والابن ، فإذا قرب الأب أحدا أبعده ابنه[١] .

وهكذا كان محمد بن عبد الله بن الخطيب يحرص على أن يستقل بالقضاء كما كان يحرص على ألا يظهر له أى منافس فى هذا المنصب . ويقال انه بلغه أن أحد الشهود بمصر، واسمه أحمد بن ابراهيم الاندلسى ، سعى من بغداد لتولى القضاء فأوقع به عند كافور وقبض عليه كافور وكاد يقتله . وكذلك فعل بمنافس آخر : هو أبو بكر محمد بن طاهر النقيب .

وكان مسعى أحمد بن ابراهيم الاندلسى قد نجح فى بغداد فوصل كتاب بتقليده القضاء ولكنه توفى قبل وصول هذا التقليد بخمسة أيام وكان ذلك فى سنة ٣٤٢ هـ . وتوفى محمد بن طاهر أيضاً فى سنة ٣٤٦ هـ فاستراح ابن الخصيبى من الاثنين[٢] .

وهكذا نرى أن القضاء قد فقد استقلاله فى هذا العهد فكان لا بد للقاضى من التقرب إلى الأمير للوصول إلى هذا المنصب ثم كان لا بد له من مداراة الأمير وطاعته ليستطيع الاحتفاظ بمنصبه . وكان لابد له فى كثير من الأحيان من تقديم الرشوة والهدايا ليتقلد المنصب أو يبقى فيه . وهكذا بطلت القاعدة المعروفة وهى أن طالب القضاء لا يولّى

وكثيراً ما كان القضاة يحضرون مجالس الأمراء ويبحثون بعض المسائل فى حضرتهم[٣] . كما كان الأمراء يتدخلون أيضاً فى بعض شئون القضاء ، فيقال ان كافوراً الاخشيدى كلف يعقوب بن كلس بأن يقول للقاضى أبى الطاهر الذهلى : « بلغنى أنك تتبسط مع جلسائك ، وهذا الانبساط يذهب هيبة الحكم » ، فلما أبلغه ذلك ابن كلس رد القاضي بأن قال : « قل للأستاذ لست ذا مال أفيض به على جليسى فلا يكون أقل من خلقى »[٤] . ويقال أيضاً عن أبى الطاهر الذهلى أنه كان

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٨ و ٥٨٠
(٢) المرجع نفسه ص ٥٨٠
(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٦ و ٥٦٩ و ٥٧٥
(٤) المرجع نفسه ص ٥٨٢ و ٥٨٣

« كالمحجور عليه فى أحكامه » ، وذلك لأن كافوراً كان يجلس كثيراً للمظالم فى أيام السبت [١] ، كما أنه لم يجعل اليه النظر فى الأحباس منذ سنة ٣٥٠ هـ [٢] .

وكان القاضى حين يتسلم عمله يلبس السواد شعار العباسيين ويركب إلى الجامع العتيق فى موكب من الشهود وأصحاب الشرطة والأمناء [٣] ووجوه أهل البلد ، وكان يقرأ عهد القضاء له فى الجامع [٤] . وكان القاضى الجديد يتسلم أوراق القضايا من القاضى السابق ويختم عليها بختمه ويكسر ختم من سبقه . ولكنه كان يعهد أحياناً إلى أحد الثقاة ليتسلم له من القاضى السابق . ويبدو أن أوراق القضايا فى العصر الاخشيدى كانت تحفظ فى سلال وتختم [٥] مع أننا نعلم أنه منذ ولاية محمد بن مسروق الكندي على قضاء مصر فى فجر الإسلام (١٧٧ — ١٨٤ هـ) كانت أوراق القضايا تختم وتوضع فى قمطر [٦] .

والظاهر أنه كان من عادة قضاة ذلك العصر إذا انصرفوا من مجلس الحكم من المسجد الجامع أن ينصرفوا وبين يديهم الحجاب وسلة القضاء [٧] .

وكان القضاة فى العصر الاخشيدى من مذاهب مختلفة ، فكان القاضى محمد بن بدر الصيرفى حنفيا [٨] ، وكان احمد بن عبد الله الكشى حنفى المذهب أيضا [٩] ، بينما كان

---

(١) ومثل هذا التعطيل حدث لبكار بن قتيبة فى عصر احمد بن طولون فيقال ان احمد بن طولون « قد داوم النظر فى المظالم حتى استغنى الناس من الشرطتين عن القاضى حتى كان بكار ربما نعس فى محله واتكأ ثم انصرف إلى منزله ولم يتقدم اليه اثنان » المرجع نفسه ص ٥١٢ وقارن Zaky M. Hassan : Les Tulunides p. 223

(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٨٤

(٣) كانت هناك وظيفة فى القضاء يعرف أصحابها باسم الأمناء (المرجع نفسه ص ٥٣٣ و٥٦٩ و٥٧٥) ولكننا لا نعرف على وجه الدقة ماهية وظيفتهم وربما كانت مهمتهم المحافظة على أوراق القضايا أو الاشراف على أموال الاحباس .

(٤) المرجع نفسه ص ٥٦٢ و٥٧٥ و٥٧٧

(٥) المرجع نفسه ص ٥٥٠ و٥٦٠ و٥٦٩

(٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٩١ و ٣٩٢

(٧) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٧

(٨) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٥٧

(٩) المرجع نفسه ص ٥٧٢

عبد الله بن زبر والحسين بن أبي زرعة بن عثمان الدمشقي وابن الحداد وعمر بن الحسن الهاشمي وعبد الله بن محمد الخصيب من أتباع المذهب الشافعي [١] . أما أبو الذكر محمد ابن يحيى الأسواني والحسن بن عبد الرحمن الجوهري وأبو الطاهر الذهلي فكانوا يتبعون مذهب مالك ، إلا أن أبا الطاهر كان لا يتقيد بمذهب مالك في أحكامه [٢] . وكان عبد الله ابن وليد القاضي يميل الى الاعتزال [٣] .

وكان بعض القضاة مصريا مثل أبي الذكر بن يحيى الأسواني وابن الحداد ومحمد بن بدر الصيرفي . وكان البعض الآخر أجنبيا عن مصر أي من الشام أو العراق مثل الحسين ابن عيسى بن هروان والحسين بن أبي زرعة الدمشقي والكشي وبكران بن الصباغ . وكان سلطان القضاة في مصر لا يمتد إلى الشام أو الحجاز إلا في حالات معينة ، ومن ذلك أن القاضي الحسين بن أبي زرعه تقلد قضاء مصر والاسكندرية [٤] والشام وحمص وفلسطين والرملة وطبرية وأعمال ذلك [٥] .

ويقال إن عمر بن الحسن الهاشمي بعد ما تولى قضاء مصر أضيف اليه قضاء الاسكندرية والرملة وطبرية وأعمالها [٦] .

وبعد ما ولى عبد الله بن محمد بن الخصيب قضاء مصر أضيف اليه قضاء دمشق والرملة وطبرية [٧] . ونعرف أيضا أن أبا الطاهر الذهلي أضيف اليه قضاء دمشق بعد أن ولى قضاء مصر [٨] .

(١) الكندي : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٣٩ و٥٦٢ و٥٧٥ و٥٧٦
(٢) المرجع نفسه ص ٥٣٢ و ٥٣٣ و ٥٧١ و٥٨١ و٥٨٤
(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٥
(٤) نلاحظ أنه منذ العهد اليوناني حتى ذلك العصر الذي نحن بصدده كانت الاسكندرية تعتبر في معظم الأحيان جزءاً مستقلا عن مصر .
(٥) الكندي : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٢
(٦) المرجع نفسه ص ٥٧٥
(٧) المرجع نفسه ص ٥٧٧
(٨) المرجع نفسه ص ٥٨٢

وكان القاضى يولى قضاة فى البلاد المختلفة فى مصر أو فى غيرها من البلاد التابعة لنفوذه القضائى . وكان نواب القاضى يكثرون أو يقلون بحسب البلاد التابعة له وأعمالها[١] .

أما الاختصاص النوعى للقاضى فكان غير محدود . والراجح أنه ظل كما كان عليه منذ فجر الاسلام فى مصر فكان إلى القاضى الأحكام الخاصة بالمنازعات المختلفة والمسائل الشرعية والأحباس ونفقة الأيتام ، كما كان القاضى يخرج لرؤية هلال رمضان .

وكانت كل هذه الأمور تجتمع إلى قاض واحد أو توزع بين قاضيين أو أكثر ، فكان الحسين بن أبى زرعه القاضى يتولى بالإضافة إلى النظر فى الأحكام المواريث والأحباس ويشرف على دار الضرب[٢] . وكان بكران بن الصباغ ينظر فى الأحباس بينما ينظر الكشى فى الأحكام[٣] . وفى ولاية أبى الطاهر الذهلى أبعد كافور عنه النظر فى الأحباس منذ سنة ٣٥٠ هـ وسلمها إلى الحسن بن أيوب ويحيى بن مكى[٤] .

والراجح أن القضاة فى ذلك العصر كانوا يتقاضون مرتبات أو أرزاقا كبيرة . وقد يفسر هذا تكالب بعض العلماء على هذا المنصب . وقد رأينا أن مرتبات القاضى فى فجر الإسلام فى مصر تدرجت من مائتى دينار فى السنة (٦٩ — ٨٣ هـ) إلى ١٦٨ ديناراً فى كل شهر (١٩٨ — ١٩٩ هـ)[٥] ، ونعرف أن القاضى بكار بن قتيبه كان يتقاضى فى العصر الطولونى ١٠٠٠ دينار سنويا[٦] . ويقال ان خمارويه كان يمنح القاضى محمد بن عبدة بن حرب ثلاثة آلاف دينار كل شهر[٧] .

ولعل المقصود هنا كل سنة وليس كل شهر أو لعلها ثلاثة آلاف درهم[٨] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٥٢ و ٥٦٢ و ٥٧١ و ٥٧٢

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٢ و ٥٦٣

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٠ و ٥٧٣

(٤) المرجع نفسه ص ٥٨٤

(٥) المرجع نفسه ص ٣١٧ و ٤٢١

(٦) المرجع نفسه ص ٥١٢

(٧) المرجع نفسه ص ٥١٦

(٨) راجع عن مرتبات القضاة G. Wiet : The Governers and Judges of Egypt (Journal of the Royal Asiatic Society, July 1914) p. 769.

وكان بعض قضاة العصر الاخشيدى مترفا . ومن ذلك أن الحسين بن أبى زرعه الدمشقى كان ينفق على مائدته أربعمائة دينار كل شهر [١] وهناك نصوص كثيرة تشهد بكرمه وسخائه مما يدل على وفرة ماله بالإضافة إلى كرمه [٢] .

وكان القضاة فى هذا العصر يقضون بين الناس فى جامع عمرو بن العاص أو فى بيوتهم [٣] . والظاهر من النصوص التى وصلت إلينا أن القضاة كانوا يذهبون إلى الجامع للقضاء فى أيام معلومة من أيام الأسبوع ، فكان الحسين بن أبى زرعه يجلس فى الجامع كل سبت [٤] ، ولما استخلف القاضى عمر بن الحسن الهاشمى الفقيه ابن الحداد كان ابن الحداد يجلس للقضاء فى دار العباسى يومى الخميس والسبت وفى داره هو يوم الاثنين [٥] .

وكان القضاة ينيبون عنهم من يساعدهم فى أعمالهم القضائية وغيرها مما يدخل فى اختصاص القاضى . فقد رأينا أن عبد الله بن أحمد بن زبر استخلف أبا بكر بن الحداد ويقال أيضاً انه ولاه النظر فى وقف المارستان وكان يعطيه كل شهر ثلاثين ديناراً . كما استخلف أيضاً أبا بكر محمد بن على العسكرى ، ومحمد بن بدر الصيرفى [٦] ، وعرفنا أيضاً أن الحسين بن أبى زرعه أناب عنه فى الحكم أبا بكر بن الحداد [٧] . ولما ولى عمر بن الحسن الهاشمى القضاء استخلف ابن الحداد ، فكان ابن الحداد يجلس فى دار العباسى يومى الخميس والسبت وفى داره هو يوم الاثنين . وكان إذا خرج العباسى للحج يجلس ابن الحداد فى الجامع [٨] . ولما ولى عبد الله بن وليد القضاء فى سنة ٣٢٩ هـ

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٢
(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٣
(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٧ و٥٣٩ و٥٥٢ و٥٦٦
(٤) المرجع نفسه ص ٥٦٣
(٥) المرجع نفسه ص ٥٥٣
(٦) المرجع نفسه ص ٥٤٠
(٧) المرجع نفسه ص ٥٦٣
(٨) المرجع نفسه ص ٥٥٣

أناب عنه فى الأحكام ابن الحداد أيضاً . ثم وقع خلاف بينهما فاستخلف ابن وليد احمد ابن محمد بن شعيب الداودى[١] .

ونلاحظ بوجه عام أن الفقيه الذى اشتهر فى معاونة القضاة فى ذلك العصر هو ابن الحداد . ولعل ذلك يرجع إلى ثقة القضاة فى أحكامه وفى نشاطه وعمله .

وكان يعاون القضاة طائفة من الشهود كانوا بمثابة موظفين دائمين ، وكان الشاهد المعترف به يسمى الشاهد العدل ، ويعرف الشهود أيضا باسم العدول . وكان القضاة بمصر فى فجر الإسلام يعنون بالسؤال عن الشهود ومعرفة مدى أمانتهم ونزاهتهم . ولكن عبد الرحمن بن عبد الله العمرى الذى تقلد القضاء بمصر بين عامى (١٨٥ و ١٩٤ هـ) أثبت الشهود العدول فى كتاب خاص . وتبعه فى ذلك القضاة من بعده[٢] .

والراجح أن الشهود كانوا يشبهون من بعض الوجوه مشايخ البلاد أو مشايخ الحارات فى عصرنا الحالى[٣] . فكان على كل شاهد أن يعرف أحوال أهل الحى الذى يسكنه ومنازعاتهم وخصوماتهم ، ومن أجل ذلك كان لشهادة هؤلاء الشهود قيمتها الخاصة فى القضاء . وطبيعى أن المفروض فيهم النزاهة وحسن السيرة .

ونرى طوال العصر الاخشيدى أن كل قاضٍ فى مصر كان يعنى بأمر الشهود عقب توليه هذا المنصب فيوافق على بعض شهود القاض السابق أى بعدلهم أو يعدل شهودا جددا ويوقف من يرى ضرورة إيقافهم أى يسقطهم[٤] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٥

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧١ و٥٧٢ و٣٨٦ و٣٩٤

(٣) راجع عن الشهود الكاسانى : بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع ج ٦ ص٢٦٦ — ٢٩٠ ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٧٤ — ٣٧٨ Omedroz : The Office of Kadi (Journal Roy As. Soc. 1910 p. 779 & seq. ,Van den Berg : Principes du droit musulman (Alger 1896) pp. 216 et suiv.

(٤) المرجع نفسه ص ٥٤٠ و ٥٥٨ و ٥٦٣ و ٥٦٨ و ٥٦٩ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٥٧٥ و ٥٨٤

ويظهر أن كثيرا من هؤلاء الشهود كانوا من الأسرات الكبيرة فى البلاد أو من وجوه القوم[١] . وكان رئيس الشهود يعرف باسم مقدم الشهود[٢] .

وكثيرا ما كان للشهود أثر فى تولية بعض القضاة ، وذلك بتشجيعهم بعض الطامعين على السعى لهذا المنصب أو بالشهادة بكفايتهم أمام الأمير[٣] .

ولا نعرف على وجه التحقيق عدد الشهود الذين كان يعدلهم كل قاض ، وهل كان يضمهم إلى من عدلهم سلفه أو يعيد النظر فى أمر الشهود جميعا . ويقال ان القاضى عبد الله بن وليد عدل فى ولايته الثلاثة على القضاء أربعين شاهدا أو يزيد[٤] .

والظاهر أن ابن وليد استكثر من الشهود[٥] . ويبدو أن القاضى فى العصر الاخشيدى كان يجلس للحكم وعن يمينه ويساره أربعة شهود[٦] .

ويظهر أن اسقاط أحد من الشهود المعروفين أو ذوى المكانة منهم كان يحدث أزمة ، فعند ما أسقط القاضى عبد الله بن وليد مقدم شهوده سليمان وسجل هذا الاسقاط وأشهد عليه الشهود ، رضى جماعة ورفض آخرون . وذهب سليمان إلى دار الاخشيد ليشتكى ابن وليد . وفض هذا النزاع سماية القهرمانة وذلك بأن طلبت من ابن وليد السجل ولما أحضره مزقته وأصلحت بينهما[٧] .

وحدث أن تقلد بعض الشهود منصب القضاء ، كما أن بعض القضاة صاروا شهودا بعد صرفهم عن القضاء ، ومن أمثلة ذلك أبو الذكر بن يحيى الأسوانى ومحمد بن بدر الصيرفى وأبو بكر بن الحداد والحسن بن عبد الرحمن الجوهرى .

---

(١) نرى فى نصوص هذا العصر تكرار هذه العبارة عن القضاة « وعدل جماعة من الاشراف ومن وجوه مصر » انظر الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٣ و ٥٨٤

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٨ و ٥٦٩

(٣) المرجع نفسه ص ٥٦١ و٥٦٨ و ٥٦٩ و٥٧٦ و٥٨٣

(٤) المرجع نفسه ص ٥٧٠

(٥) المرجع نفسه ص ٥٦٩

(٦) المرجع نفسه ص ٥٥٢ و٥٦٠

(٧) المرجع نفسه ص ٥٦٨

وكان للقضاة كتاب يساعدونهم . ومن ذلك أن الحسين بن أبى زرعه الدمشقى اتخذ الحسن بن عبد الرحمن بن اسحق الجوهرى كاتبا له[١] ، ولما تقلد هذا الكاتب القضاء بعد ذلك اتخذ ابنه الحسين كاتبا له[٢] .

وكان للقاضى عبد الله بن وليد كاتب اسمه حماد ، وقد هجا محمد بن بدر الصيرفى القاضى ابن وليد فى قصيدة طويلة منها :

يا ابن الوليد تدبر ما أتيت به ... ولا تكن للهوى مستكملا عمما
لو كنت تسمع قول الحق معتقدا ... أو كنت تخشى عذاب الله معتصما
لما استعنت بحماد اللعين وما ... رأيت انت له فى صالح قدما
جعلته كاتبا يمضى الأمور ولم ... يمس فى العلم قرطاسا ولا قلما[٣]

ويبدو من هذه الأبيات أن كاتب القاضى رجل ينتظر أن يكون على شىء من العلم بأمور الدين . ولا عجب فان بعض الكتاب تولوا منصب القضاء فى هذا العصر مثل محمد بن بدر الصيرفى القاضى الذى كان كاتبا للقاضى محمد بن عبدة بن حرب[٤] قاضى خمارويه بن احمد بن طولون . كما أن القاضى الحسن بن عبد الرحمن بن اسحق الجوهرى كان كاتبا للحسين بن أبى زرعه[٥] .

ولسنا نعرف على وجه التحديد عمل كاتب القاضى ، ولكن يبدو أن بعض الكتاب كانوا يعاونون القضاة فى كتابة الأحكام[٦] ، بل وفى تصريف الأمور كما يستنبط من الأبيات السابقة التى قيلت فى هجاء القاضى ابن وليد وكاتبه حماد .

ويظهر أن بعض القضاة كان يعهد الى كاتبه بعمل معين من أعمال القضاء ، فيقال ان عبد الله بن محمد بن الخصيب ، استكتب ابنه ينظر فى الأحباس[٧] ، كما أن بعض

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٣
(٢) المرجع نفسه ص ٥٧١
(٣) المرجع نفسه ص ٥٧٠
(٤) المرجع نفسه ص ٥٥٨
(٥) المرجع نفسه ص ٥٦٣
(٦) المرجع نفسه ص ٥٦٣
(٧) المرجع نفسه ص ٥٧٧

النصوص الخاصة بالقضاء فى هذا العصر تشير إلى فريق من الكتاب يعرفون باسم « كتاب الشروط » [١] . ولعلهم كانوا ينصرفون الى تسجيل ما يتفق عليه الخصوم .

وكان للقضاة فى العصر الاخشيدى حجاب يستأذنون للناس وللشهود فى الدخول إلى القاضى [٢] .

وكان بعض القضاة فى هذا العصر شديداً فى الحق بينما كان بعضهم ظالما مستهتراً . وممن عرفوا بالعدل محمد بن بدر الصيرفى . ويقال انه دخل مرة على الوزير أبى الفضل جعفر بن حنزابة « وكان عنده أبو بكر محمد بن على الماذرائى مقبوضاً عليه فى المصادرة ، فقال الوزير لمحمد بن بدر : هذا اسماعيل بن بنان وكيل جارية محمد بن على ، فمهما جاءك فيه فامضه ، فقال : حتى يثبت وكالته عندي بشاهدين عليها . فقال له : أنا أقول لك هو وكيل تقول لى « حتى يثبت عندى » ! وخبرك عندى بالتفصيل . وليس هذا موضعك وإنما تريد أن يشيع هذا القول ! أقيموه ! . فأقيم واعتقل ساعة فى داره . ثم خوطب فيه فأطلق ثم أرسل إليه . من تريد من الشهود ؟ وقال : من شهودى الذين أقبلهم . فقبل الوزير ذلك وعظم محمد بدر فى عينه وحسن موقع فعله عنده » [٣] .

وعنى محمد بن بدر بأمر اليتامى وبالأحباس عناية زائدة ويقال انه اشترى — وهو قاض — للأيتام دورا أو رباعا بسبعة عشر ألف دينار . وفضلا عن ذلك فقد كان يخصص صباح كل يوم جمعة للنظر فى أحوال اليتامى [٤] .

ومن الذين عرفوا بالعدالة أيضا أبو بكر بن الحداد [٥] . ومع ذلك يقال إن الأمراء الاخشيديين كلهم كانوا يكرهون ابن الحداد لكراهتهم للشافعيين ولأنه كان متشدداً عليهم . ولكنهم كانوا يحترمونه وكان كثير التردد عليهم [٦]

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٨٠
(٢) المرجع نفسه ص ٥٤٠ و ٥٦٩
(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٠
(٤) المرجع نفسه ص ٥٥٩
(٥) المرجع نفسه ص ٥٥٢
(٦) المرجع نفسه ص ٥٥٥

وقد رويت عن ابن الحداد قصة تشهد بشدته فى الحق برغم تدخل أبى المظفر الحسن ابن طغج أخى الاخشيد [١] .

ومن الذين اشتهروا أيضا بحسن السياسة والعدل الحسين بن أبى زرعه الدمشقى [٢] ، وعمر بن الحسن الهاشمى [٣] ، وعبد الله بن محمد بن الخصيب [٤] .

أما القضاة الذين اتخذوا القضاء سبيلا لجمع الأموال فمنهم عبد الله بن أحمد بن زبر . ويقال عنه انه « كان عارفا بأخذ الدراهم والدنانير والهدايا ، وكان مع ذلك لا يقبض درهما ولا يضم هدية حتى يقضى حاجة صاحبها » [٥] . والواقع أن فى المراجع المختلفة قصصا تشهد باستهتاره فى هذا الميدان حتى ليبدو أنه كان لا يحرص على أن يخفى عن الناس سوء خلقه وقبوله الرشوة [٦] . ومع ذلك فقد كان هذا القاضى فقيها عالما حتى قال فيه أحد ذوى الرأى « لو كان ابن زبر عادلا ما عدلت به قاضيا » [٧] . ومن اشتهر أيضا بقبوله الرشوة والبعد عن العدل القاضى عبد الله بن احمد بن شعيب المعروف بابن وليد [٨] .

وكان القضاة فى ذلك العصر ونوابهم الذين ينوبون عنهم فى الحكم بين الناس يلبسون طيلسانا أسود وعمامه سوداء فوق القلنسوة [٩] .

وكان العامة يثورون على القضاة فى بعض الأحيان . ومن ذلك أن جماعة من الفرما شكوا الخصيبى ونائبه ، ولكن كافورا نصره عليهم فأمر بضربهم وطيف بهم

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٧
(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٢
(٣) المرجع نفسه ص ٥٧٥
(٤) المرجع نفسه ص ٥٧٧
(٥) المرجع نفسه ص ٥٤١
(٦) المرجع نفسه ص ٥٤٠ و ٥٤١
(٧) المرجع نفسه ص ٥٤١
(٨) المرجع نفسه ص ٥٦٥ و٥٦٨
(٩) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٧٨ والملحق ص ٥٤٠ و٥٥٢ و٥٦٥

على الجمال . فثار القوم على الخصيبي فى الجامع [١] . ولما استقل ابنه محمد بن عبد الله ابن الخصيب بولاية القضاة بعد وفاة أبيه وركب الى الجامع ثار الناس عليه وحصبوه (أى رموه بالحصباء) فصاح قائلا : « ما الذى يُنقم على وقد عمرت الاحباس ووفرتها وفرقت فى مستحقيها وما ضبط أحد قط أننى ارتشيت أنا ولا أبى ؟!» . ولما علم كافور الاخشيدى بذلك أرسل اليه غلاما من غلمانه يسأل عنه [٢] .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق أسباب سخط الناس على الخصيبي وابنه . وحسبنا أنهما كانا مكروهين وأن ذلك لا يشهد لهما بالتوفيق فى اقامة العدل بين الناس .

* * *

وكان فى مصر الاخشيدية — كغيرها من أنحاء العالم الاسلامى — ما يسمونه النظر فى المظالم . ويعد الناظر فيها أشبه شىء بمحكمة الاستئناف ومحكمة النقض ومجلس الدولة فى عصرنا الحالى . فكانت تعرض عليه القضايا « اذا عجز القاضى عن تنفيذ حكمه فى قضية رجل من علية القوم أو اذا لجأ اليها المتقاضون اذا اعتقدوا أن القاضى لم يحكم بينهم بالعدل . وكان الغرض الاساسى من إنشائها هو وقف تعدى ذوى الجاه والحسب . ولهذا كانت تسند رئاسة ديوان المظالم لرجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم قاضى المظالم » [٣] .

ولكن الواقع فى مصر الاسلامية يخالف ما تكتبه المراجع النظرية فى هذا الشأن . فان اختصاص الناظر فى المظالم كان غير محدود ، فكان دون اختصاص القاضى فى بعض الأحيان وفوقه فى أحيان أخرى . وقد كتب المستشرق فون درهايدن Vonderheyden أن منصب الناظر فى المظالم كان أول مناصب الدولة ، لأن صاحبه كان يراقب

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٨

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧٩

(٣) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٣٥٢ — ٣٥٣ وراجع الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦٤ — ٧٦ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٧

سائر الموظفين ، وبذلك كان يشبه بمفرده كل ما تقيمه الأمم الحديثة من مجالس ولجان لضمان العدالة ومحاربة الاوتقراطية[١] . ولكننا نرى أن هذا القول مبالغ فيه . ولاريب فى أن أساسه ما جاء فى الاحكام السلطانية للماوردى عن الناظر فى المظالم . والحق أن هذه الاختصاصات كانت نظرية الى حد كبير . وسلطان الناظر فى المظالم لم يكن واسعا إلا حين كان هو الخليفة أو الأمير أو من يقرب من مرتبتهما أو من كان مؤيدا من الأمير حائزا لثقته التامة . وفضلا عن ذلك فان اختصاص الناظر فى المظالم واختصاص القاضى كانا يلتقيان فى كثير من الأحيان وكان يصعب أحيانا أن نتبين أيهما أوسع سلطانا[٢] . وفى معظم الأحيان كان المرجع النهائى للبت فى المظالم الخطيرة الشأن هو الخليفة أو الأمير نفسه .

وفى بداية العصر الاخشيدى كان القاضى ينظر فى المظالم[٣] . وفى سنة ٣٣١ أفرد للنظر فى المظالم قاض مستقل[٤] . وبعد مقتل ابن رائق وعودة الاخشيد من الشام سنة ٣٣١ هـ كان هذا الأمير يجلس للنظر فى المظالم بنفسه فى أيام الأربعاء[٥] . وبعده كان كافور يجلس كل سبت ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود ووجوه البلد[٦] « وكان القاضى كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم »[٧] .

* * *

(١) M. Vonderheyden : La Berbérie Orientale sous la Dynastie des Benoul'l-Arab p. 178

(٢) راجع بحث الأستاذ امدروز عن المظالم فى مجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٩١١ ص٦٣٥ وما بعدها ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص٣٨٠ — ٣٨٦ و G. Von Grunebaum : Medieval Islam pp. 164-165

(٣) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٥٢ ، والسبكى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ١١٣ — ١١٤

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٧٢

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٣٩

(٦) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٨٤ ، والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٨٣ — ٥٨٤

بقى أن نتحدث عن المحتسب . ولسنا نريد هنا أن نفصل الكلام على اختصاصاته كما تبينها المراجع الفقهية والتاريخية [١] . وحسبنا أن نذكر أنه كان يراقب مراعاة أحكام الشرع ويسهر على حسن السلوك العام ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويشرف على نظام الأسواق والطرقات وعلى الباعة والعمال ، ويعمل بوجه عام على حماية الناس من غش التجار والصناع [٢] .

وأقرب المحتسبين عهدا ببداية العصر الاخشيدى هما ابو مقاتل صالح بن محمد الذى تقلد منصب الحسبة قبيل ولاية الاخشيد على مصر [٣] ، ثم محمد بن جعفر القرطى الذى قلده مؤنس الخادم هذا المنصب قبيل ولاية الاخشيد أيضا [٤] .

ومن المحتسبين فى العصر الاخشيدى محمد بن جعفر بن سلام . وقد روى ابن زولاق أن بعض جيران سيبويه المصرى ساءه ولايه ابن سلام على الحسبة فشكاه الى سيبويه فركب معه الى أبى الفضل جعفر بن الفضل فقاله له : « أبا الفضل حفظك الله ورعاك وصانك وأبقاك وليت علينا محتسبا قليل الوفا كثير الجفا طويل القفا فاما ان كفيناه أو أبدلته لنا بسواه . . . » [٥] . ويبدو من هذا النص أن الوزير كان صاحب الرأى الأعلى فى اختيار المحتسب وفى عزله .

وكان المفروض دائما أن يكون المحتسب « رجلا عفيفا خيرا ورعا عالما غنيا نبيلا عارفا بالأمور محنكا فطنا لا يميل ولا يرتشى فتسقط هيبته ويستخف به » [٦] . ولكن

(١) راجع الماوردى : الأحكام السلطانية (الباب العشرون) ص ٢٠٨ وما بعدها والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤

Von Grunebaum : op. cit. pp. 165-167, Levi-Provençal : Le Traité d'Ibn Abdun p. 210 و F. Tyan : Histoire de l'organisttion Judiciaire en pays de l'Islam.

(٢) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ والشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة . وزكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى ص ١٧٣ — ١٧٤ وما ذكر فيهما من مراجع

(٣) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٣٩

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٥) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٣ — ٥٤

(٦) Levi-Provençal : op. cit. p. 210.

الظاهر أن بعض الذين تقلدوا الحسبة فى العصر الاخشيدى كانوا بعيدين عن هذه الفضائل . وحسبنا مارواه ابن زولاق فى هذا الشأن . قال إن سيبويه المصرى لقى المحتسب والحراس بين يديه فقال: « ما هذه الأحراس يا أنجاس ! والله مأثم حق أقمتموه ولا سعر أصلحتموه ، ولاجان أدبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه ، وما هى إلا أجراس تسمع لباطل يوضع وأقفاء تصفع وبراطيل تقطع ! . لا حفظ الله من جعلك محتسبا ! ولا رحم لك ولا له أما ولا أبا ! »[1] .

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٩

obeikandl.com

الباب السابع

دراسات في المجتمع المصري على عهد الأخشيديين

obeikandl.com

دراسات فى المجتمع المصرى على عهد الاخشيديين

(١)

طبقات المجتمع

(١) الاشراف

أوجد الاسلام نوعا من شرف الدم لا يزال باقياً إلى عصرنا هذا ، وذلك فى ذرية أهل بيت رسول الله . وكانوا يأخذون بوصفهم قرابة النبى راتباً من الحكومة ، وكان لهم قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم الذى يعينه الخليفة [١] . وكان لهم نقيب فى دار الخلافة ونقباء فى المدن الكبرى من ديار الاسلام يعينهم الخليفة أو من فوض الخليفة اليه تدبير الأمور كوزير التفويض وأمير الاقليم . وكان كل من العباسيين والطالبيين أو العلويين يخاطب بالشريف [٢] . وممن ولى نقابة الطالبيين بمصر على عهد كافور الاخشيدى الشاعر أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل طباطباً المتوفى سنة ٣٥٢ هـ [٣] .

والواقع أن أسرة طباطبا كان لها شأن عظيم فى المجتمع المصرى منذ قدم إلى مصر القاسم الرسى من أولاد السيد ابراهيم طباطبا . وقد توفى القاسم هذا سنة ٢٢٠ هـ . وفى قرافة مصر مشهد كبير لكثير من أفراد هذه الأسرة [٤] . ومن أعلامها فى العصر الاخشيدى عبد الله بن طباطبا ، وكان « شريفا عفيفاً فصيحاً جميلا وكان له رباع وضياع

---

(١) أنظر الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٢ — ٨٦ (الباب الثامن فى ولاية النقابة على ذوى الانساب) .

(٢) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦١

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٩ — ٥١ وابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٣١

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٥٩ — ٦٤

ونعمة ودائرة متسعة ، وكان كثير الافتقاد للفقراء والأرامل والمنقطعين »[١] . وتوفى عبد الله بن طباطبا سنة ٣٤٨ . ومن أعلام أسرة طباطبا فى العصر الاخشيدى أيضاً الحسن بن على بن محمد بن احمد بن على الحسن بن طباطبا وكان من الزهاد وتوفى سنة ٣٥٤

وكان الاشراف فى مصر موضع الاحترام والتكريم من الشعب والحكومة فى العصر الاخشيدى . وقد مر بنا أن الحسن بن طاهر العلوى سفر بين الاخشيد وابن رائق حينما جاء ابن رائق مهاجما مصر سنة ٣٢٧ هـ[٢] . والمعروف أيضا أن الاخشيد أرسله إلى سيف الدوله ليفاوضه من أجل السلام وتحديد الحدود بين أملاكهما[٣] .

وقد مرت بنا بعض قصص عن كافور تشهد بتكريمه العلويين . ونضيف هنا قصة تروى عما حدث لكافور ذات مرة مع سيدة علوية . فقد قيل ان امرأة وقفت له فى طريقه وصاحت به : ارحمنى يرحمك الله ! فدفعها أحد رجاله فسقطت فاغتاظ كافور وأمر بقطع يده فقامت تشفع له فتعجب من مكرمتها وقال : اسألوها عن أصلها فما تكون إلا من بيت عظيم . فسئلت فاذا بها علوية فعظم الأمر على كافور وقال : قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف . وأحسن اليها وتفقد سائر نساء الأشراف وأدر عليهن الاحسان والجرايات[٤] .

وكانت وساطة العلويين وشفاعتهم مقبولة عند الأمراء الاخشيديين[٥] . وكانت لهم منزلة سامية عند كبار القوم وأفراد الشعب . ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أن الحسن بن طاهر العلوى توسط فى صلح بين القاضى الحسين بن ابى زرعة والفقيه

(١) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦٠
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥
(٣) المرجع نفسه ص ٤٢
(٤) المرجع نفسه ص ٤٨
(٥) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص٥٧٦ وأنظر أيضاً ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦٠ — ٦٤ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨

أبي بكر بن الحداد وذهب ومعه ابن الحداد إلى دار أبي زرعة ووجده في الطابق العلوي بها. ونزل ابن ابي زرعة « ومر عليهما فسلم ولم يجلس عندهما وتوجه إلى مكان آخر فجلس فيه واستدعاهما ، فلما دخلا عليه قام وتلقاهما . وفعل ذلك أدبا مع الشريف لئلا يقوم اليه . واستحسن من رأى ذلك عنده وعدّوه من آدابه »[١] .

وروى أن أبا بكر محمد بن على الماذرائى لما عاد من معتقله فى الرملة بعد وفاة الفضل بن جعفر بن الفرات وخرج من دار الاخشيد بعد أن خلع عليه الأمير سار الشريف أبو جعفر مسلم بين يديه ولم يعلم به الماذرائى إلا فى سوق السراجين[٢] فخلف عليه حتى ركب[٣] .

والظاهر أن بعض أوساط الناس كانوا ينقدون — فيما ينقدون من أحوال البلاد بوجه عام — ما كان للعلويين من مكانة وسلطان . ومن ذلك ما حدث بين الشريف أبي محمد عبد الله أخى مسلم والأديب سيبويه المصرى . فقد قيل ان هذا الشريف جاء يوما إلى سيبويه وقال : سلام عليكم ! فقال سيبويه : السلام على من اتبع الهدى وتجنب الردى وسلك الطريقة المثلى ولم يتشبه بكسرى وبهرام وسابور وشهرام ! ارجع إلى مص النوى فهو أصلح لك وأولى ![٤] .

وجاء سيبويه المصرى يوما الى الشريف أبي جعفر مسلم وقال : « جئت يا أيها الشريف فى حاجة . أريد قبة على بغل نقل يحمل جميع آلة السفر من وطاء وغطاء ومستعمل فانى خارج فى غد إلى مسجد موسى أصلى فيه وأدعو ، فقال له مسلم : السمع والطاعة

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٣

(٢) السراجون صانعو السروج : ولم يذكر المقريزى بين أسواق مصر والقاهرة (الخطط ج ٢ ص ٩٤ وما بعدها سوقاً للسراجين فى عصره . بل أشار إلى صناعة السروج فى سوق اللجميين) والراجح عندنا أن لفظ السراجين كان أكثر شيوعا فى المغرب، ومن ثم استعمله ابن سعيد الذى ننقل عنه القصة التى نحن بصددها أنظر A. Cherbonneau : Dictionnaire Arabe-Français t. I p. 449. Kasimirski : Dictionnaire Arabe-Français t. II ويبدو أن لفظ السراج كان يطلق أحياناً على النقاش ببوية الأخشاب أنظر Dozy : Supplément t. I. P. 615

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٤

(٤) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣١ ؛ أنظر أيضاً المرجع نفسه ص ٣٥

ما تفتح باب دارك غدا إلا والجميع على الباب . ثم دعا بالفراشين فأخذوا فيما يحتاجون إليه فقال له سيبويه : وحقك ياشريف ما أخرج إلا للصلاة والدعاء للمسلمين أن يريحهم الله من هذا الأسود الخصي فقد كدر الحياة وأعاب الولاة وأفسد الصلاة وما الله عنه بساه. ثم قام منصرفا وبقى مسلم مطرقا ثم قال فى مجلسه : ألا ترون أى بلية ؟! ان أرسلت إليه خفت من الأستاذ . وان لم أرسل إليه وقعت فى لسانه وفى سبه »[1] . والواقع أن الشريف لم يستطع الخروج من هذا المأزق الا بفضل حيلة جعلت سيبويه يسعى إليه ويطلب منه أن يرجئ تنفيذ كل ما تقدم به .

(ب) علية القوم

وطبيعى أن كان بمصر على عهد الاخشيديين طائفة من علية القوم أنهضهم اليسار . وكان منهم كبار الموظفين والملاك والتجار . وكان على رأس هذه الطائفة أسرة الماذرائيين ، وقد فصلنا الكلام عليهم فى غير موضع من هذا الكتاب . ولكنا نضيف هنا بعض الأخبار التى تشهد بعلو مكانتهم فى مصر إلى حد جعل ابن زولاق يخصهم بكتاب من تأليفه[2] ، فضلا عما ذكره عنهم فى كتبه : سيرة محمد بن طغج الاخشيد ، وتتمة أمراء مصر ، وتتمة قضاة مصر للكندى ، وسيرة سيبوية المصرى ، وسيرة جوهر[3] .

وكان للماذرائيين فى مصر الضياع الواسعة ، وكان كبار هذه الأسرة يتخذون الحجاب تشبها بالأمراء . وكان لمحمد بن على الماذرائى ديوان كبير يشرف على نحو ستين ألف محتاج كانت تجرى عليهم الأرزاق[4] . وكان الاخشيد ينكب الماذرائيين أحيانا ويصادر كثيراً من أملاكهم وكانت العامة تحرق دورهم وتنهب ضياعهم ، ولكنهم كانوا ينهضون وتعود اليهم مكانتهم وثرواتهم فى فترة قصيرة جداً ، ويبدو أن سلطانهم كان يمتد إلى كثير من نواحى النشاط الاقتصادى فى البلاد حتى ليصعب تجريدهم من أموالهم تماماً .

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٥ — ٥٦

(٢) « كتاب سيرة الماذرائيين كتاب مصر » .

(٣) راجع ما كتبناه عن ابن زولاق فى تصدير هذا الكتاب وما أشرنا إليه من المراجع .

(٤) المقريزى : المقفى (فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٥

بل إن الاخشيد كان حين ينكب الماذرائى ويأمر باعتقاله يحرص على أن يكون هذا الاعتقال فى قصر يليق بمكانة الماذرائى . وقد مر بنا أنه قال مرة عن ترف دار أعدها لاعتقال محمد بن على الماذرائى : « نعم هذا ملك ! وأردت أن لايحتقر بشىء لنا ولايحتاج أن يطلب حاجة إلا وجدها ، فانه ان فقد عندنا شيئاً مما يريده استدعى به من داره فنسقط نحن من عينيه عند ذلك »[١] .

وكان الماذرائيون يعيشون فى ترف ظاهر ولكنهم كانوا إلى جانب هذا يغدقون الخير والاحسان على الفقراء والمحتاجين . وكان لهم جوسق عظيم بنى على هيئة الكعبة « وكان أهل الرياسة يجتمعون عنده فى الأعياد ويوقدون فيه الشموع الكثيرة ويجتمع عنده القراء ويتلون فيه القرآن وتأتى الماذرائيون ويفرقون الجوائز فى ذلك اليوم رغبة لما فى ذلك المكان من الخير والبركة : وقال الكعبى . ما رأيت من بكا حوله الفقراء والارامل والأيتام كالماذرائى لما مات »[٢] .

وممن وصلت إلينا أسماؤهم من علية القوم فى العصر الاخشيدى أبو جعفر أحمد ابن نصر . ولعله أحمد بن نصر الذى قلده الفضل بن جعفر الخراج بمصر قبل دخول الاخشيد[٣] . ومهما يكن من الأمر فان أبا جعفر بن نصر كان من دعاة المعز لدين الله فى مصر قبيل الفتح الفاطمى[٤] . وكان يبر سيبويه المصرى وحدث أن أبطأ عليه بره ومر سيبويه بدار شيدها احمد بن نصر فقال : « كافور الأسود غداً يؤخذ بأذنه . إنما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ فيها البيعة على كل تابع ومتبوع وذليل ومرفوع . تغير فيها الأحوال وتحمل اليها الأموال »[٥] فلما بلغ ابن نصر هذا التهديد أرسل اليه ما أرضاه .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦

(٢) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ١٥٥ أنظر أيضاً ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٣١

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١١

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٣

(٥) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠

ومن علية القوم فى العصر الاخشيدى أيضاً أبو الحسن محمد بن عبد القاهر وأبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن اسحق الجوهرى [١] وابن اريخا [٢] وابن برك التاجر [٣] .

(ج) سواد الشعب

يحكى عن الفضل بن يحيى أحد رجال الحاشية فى العصر العباسى أنه قال : « الناس أربع طبقات » :

١ — ملوك قدمهم الاستحقاق .

٢ — ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى .

٣ — وعلية أنهضهم اليسار .

٤ — وأوساط ألحقهم بهم التأديب ، والناس بعدهم زَبَد جُفَاء وسَيْل غُثَاء ، لُكع ولُكاع ؛ وربيطة اتضاع هم أحدهم طعمه ونومه [٤] .

والحق ان المؤرخين المسلمين لم يعنوا بغير الطبقات الأربع التى أشار اليها الفضل ابن يحيى [٥] ، أما سائر الناس من سواد الشعب فلا نكاد نعرف عنهم من المراجع القديمة ما يناسب نسبتهم الكبيرة بين سكان البلاد . وإذا صح أننا نعرف شيئا عن حياة العامة من كتب الأدب وبعض كتب الفقه ، فاننا لا نكاد نعرف شيئا خاصا عن حياتهم فى العصر الاخشيدى إلا ما سيأتى ذكره فى الصفحات القادمة حين نعرض للأعياد والعادات وما إلى ذلك .

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٨

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٣

(٣) ابن زولاق ، أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠

(٤) الهمدانى ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١

(٥) كتب المقريزى فصلا «فى ذكر أقسام الناس وأصنافهم وبيان جمل من أحوالهم وأوصافهم» وهو غنى ببيانات تكشف عن حال المجتمع فى عصر المماليك . انظر المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٢ — ٧٤

(د) أهل الذمة

كان فى مصر على عهد الاخشيديين كثير من المسيحيين ، أغلبهم من القبط الذين ظلوا على دينهم ، كما كان بها بضعة آلوف من اليهود . وليس فى الشريعة الاسلامية ما يغلق دون أهل الذمة أى باب من أبواب الأعمال العامة التى لا شأن للدين بها ولذا كان نشاطهم ملحوظا فى الأعمال التى تدر الأرباح الوافرة . فكان منهم أصحاب الضياع والأطباء[١] ، والصيارفة والتجار .

وكان لأهل الذمة محاكمهم الكنسية الخاصة بهم ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يحتكموا إلى القضاة المسلمين[٢] ، وكانوا يدفعون الجزية كل بحسب الطبقة التى ينتمى اليها . ولسنا نعرف تماما عدد الطبقات التى كانوا ينقسمون اليها فى حساب الجزية فى العصر الاخشيدى ولكن الراجح أنهم كانوا ثلاث طبقات : دنيا وعلى أفرادها دينار فى السنة ، ووسطى يدفع أفرادها دينارين ، وعليا يدفع أفرادها ثلاثة دنانير فى السنة[٣] .

ولا نسمع فى العصر الاخشيدى شيئا عن التزام أهل الذمة القوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى اللباس والركوب[٤] . والراجح أن القبط كانوا لا يزالون يحتفظون بلغتهم القبطية وأنهم لم يتركوها إلا حوالى أواخر القرن الرابع الهجرى[٥] .

(١) روى ابن زولاق فى كتاب أخبار سيبويه المصرى (ص ٤٣) قصة يمكن أن يستنبط منها أن من بين أسماء الأطباء النصارى فى العصر الاخشيدى هاشم وابن توفيل وارسانه وقوريل ومرجب وابن عثمان . ولكنه نص غامض ولم نجد ما يؤيده فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٥١ و ٣٩٠

(٣) أنظر أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ ، ويحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٥١ ، والماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٨ ، وسيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٨ — ٤١ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٧٤ — ٧٥

(٤) راجع الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ١٠٠ و ج ١١ ص ٣٦ ، وأبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٢ — ٧٣ ، والماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٩ ، وسيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٠٣ — ٢١٥ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٨٢

(٥) راجع متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٨٩ وما أشار اليه من المراجع القديمة .

وكانت العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة فى العصر الاخشيدى طيبة فى معظم الأحيان . وكانت المشاغبات بين الفريقين تنشأ حين يقصد الشعب أن يحارب تسيطر أهل الذمة على الشئون المالية فى البلاد وحين ينتصر البيزنطيون على المسلمين فى أطراف الشام وحين يحتج المسلمون على السماح للمسيحيين بتعمير الكنائس .

ومن ذلك ما يروى عن هياج العامة وتخريب الكنائس فى مصر حين ورد الخبر بأن البيزنطيين دخلوا الشام سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) وقتلوا وخربوا [١] . ولما غزا الامبراطور نقفور جزيرة اقريطش فى العام التالى وخرب ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقا كثيرا ووصل خبر ذلك إلى مصر ثار العامة وخربوا احدى الكنائس فى مصر القديمة [٢] .

ومما روى ابن زولاق قصة لسيبويه المصرى مع موظف كبير من الموظفين فى العصر الاخشيدى كان قد قطع عطاءً يتناوله سيبويه من ديوان الاحباس فشتمه سيبويه وعيره بأنه « عمار الكنائس » [٣] .

ويبدو أن أولى الأمر كانوا يستكتبون الشعراء المسلمين قصائد ينسبونها إلى المسيحيين ويذكرون فيها ما فعلوه فى المدن الاسلامية وأهلها وذلك استنهاضا لهمم المسلمين وحثا لهم على الأخذ بالثأر . ومن ذلك القصيدة المعروفة باسم القصيدة الأرمنية التى تنسب إلى شاعر ارتد عن الإسلام واتصل بالامبراطور نقفور ونظم هذه القصيدة حول منتصف القرن الرابع الهجرى وزعموا أنه أرسلها إلى الخليفة المطيع لله . ومن أبياتها :

ثغورُكم لم يبْق فيها — لوَهْنكم وضعفكم إلا رسومُ المَعَالِمِ
فتحنا الثغورَ الأرمَنيةَ كلها بفتيان صدقٍ كاللُيوثِ الضراغمِ
واقريطشُ قد جازت إليها مراكبى على ظهر بحرٍ مُزْبِدٍ متلاطِمِ

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١١٦
(٢) المرجع نفسه ص ١١٧
(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٠ — ٥١

فخزيتهم أسرى وسيقت نساؤهم ذواتُ الشعورِ المُسْبِلاتِ النواعمِ
إلى حلب حتى استبحنا حريمَها وهدَّم منها سورَها كُلُّ هادمِ
أخذنا النِّسا ثم البنات نسوقُهم وصبيانَهم مثلُ المماليكِ خادمِ
ومصرُ سأفتحها بسيفي عنوةً وآخُذُ أموالاً بها وبهائمِ
وأجزِى كافورا بما يستحقُّه بمِشْطٍ ومقراض وقصٍّ محاجمِ

وهكذا تسير أبيات هذه القصيدة معددة الأقاليم الإسلامية وما فعله المسيحيون فى الانتصار عليها وما يريدون إتمامه للقضاء على الإسلام وأهله ، إلى أن تنتهى بهذه الأبيات :

هنالك تخلو الأرضُ من كل مسلمٍ لكل نقِى الدينِ أغلف زاعمِ
سأفتح أرضَ الله شرقا ومغرباً وأنشر ديناً للصليب بصارمى
فعيسى علا فوقَ السمُواتِ عرشُه يفوزُ الذى والاهُ يوم التخاصمِ
وصاحبُكم بالترب أودى به الثرى فصار رفاتا بين تلك الرمائم [1]

ولا شك فى أن انتصارات البيزنطيين فى شمالى الشام ومثل هذه القصائد وما اليها من الأخبار التى كانت تروى استنهاضا لهمم المسلمين ، كل ذلك كان يؤدى فى بعض الأحيان إلى توتر العلاقات بين المسلمين والنصارى فى مصر والشام وغيرها من ديار الاسلام.

وكان يحدث أحيانا أن يتدخل الأمير الاخشيدى بين المسيحيين لفض الخصومات التى تقوم بين الشيع والطوائف المختلفة . وقد انقسم المسيحيون على أنفسهم فى تنيس انقساما كبيراً بدأ قبيل ولاية الاخشيد واستمر حتى تدخل فيه هذا الأمير . ففى سنة ٣٢٢ مات أسقف تنيس وكان بينه وبين البطريرك وحشة وولى الأخير على تنيس أسقفاً من بين أنصاره من أهلها يسمى تاوفيلس ، ولكن أهل تنيس خاصة والأقباط

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٤٤ — ٢٤٧

عامة انقسموا حزبين: أحدهم مع البطريرك والأسقف تاوفيلس والآخر عليهما ، واجتمع إلى تاوفيلس بنوه واخوته وجماعة من أهل البلد « وقصد استصلاح من كان نافراً وجعل يقصد منازلهم راجلا وخفض جناحه لهم ولاطفهم فلم يغنه ذلك شيئاً وقام لكل من الحزبين غرض فى نصرة هواه حتى كان الأب لا يكلم ابنه ولا المرأة تخاطب بعلها وانتشت الحرومات بينهم وصارت القرابين تنتقل من هيكل إلى هيكل وتكسر على المذابح ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسلطان ، وخرج جماعة من النافرين عنه من أهل تنيس من النصارى إلى الاخشيد محمد بن طغج بمصر »[1] . فأرسل الاخشيد معهم قائداً على رأس جماعة من الجند وقبض على البطريرك وعلى الأسقف تاوفيلس وختمت الكنيسة ومنع الناس من الصلاة فيها وحمل ما فى خزائنها من الأموال والتحف إلى الاخشيد ولم يأمر باعادته اليها إلا بعد وساطة طائفة من وجوه القبط وكتابهم .

وليس فى النصوص التاريخية والأدبية التى وصلت الينا من العصر الاخشيدى ما يشير الى وجود أحياء مخصصة لأهل الذمة فى الفسطاط بحيث لا يتعدونها . وإن كان طبيعياً أن يؤثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين . وكان فى الصحراء الغربية والصحراء الشرقية أديرة لا يزال بعضها قائما حتى اليوم .

(هـ) الرقيق

كانت مصر فى العصر الاخشيدى من أعظم أسواق الرقيق الأسود وكانت القوافل تجلب اليها العبيد من الجنوب . وكان الرقيق الأبيض يصل الى أسواقها من بيزنطة وارمينية وثغور البحر الأبيض المتوسط ومن أسواق الرقيق فى سائر ديار الاسلام . وكان تجار اليهود يستأثرون بجلب الغلمان والجوارى من أوربا[2] .

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ٩٤ و ٩٥

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣١٥

وكان المسلمون يحسنون معاملة عبيدهم وإمائهم فى معظم الأحيان ، وذلك عملا بروح الاسلام وتعاليمه . وكان من البر والعادات المحمودة أن يعتق السيد كثيرا من العبيد الذين يملكهم . ومن ذلك ما يقال عن عتق محمد بن على الماذرائى مائة الف مملوك فى حياته [١] . وفى هذا مبالغة واضحة ، ولكنه يشهد باقبال هذا الوزير على مرضاة الله بمثل هذا العمل النبيل . وكانت لهذا الماذرائى جارية عالية القدر رفيعة المنزلة ، اسمها ست الناس [٢] . ولعلها المقصودة فى نص جاء فى ابن زولاق عن جارية الماذرائى كانت تجلس فى شباك من شبابيك قصره وحولها جواريها قيام بالمذاب [٣] .

ويلوح أن السيد الذى كان يعتق عبداً أو جارية له كان يحرر وثيقة بذلك . وقد وصلت الينا وثيقة من هذا النوع محفوظة فى دار الكتب المصرية ، ولكنها لاترجع الى العصر الاخشيدى نفسه بل الى سنة ٣٩٣ هـ . (١٠٠٣ م) [٤] ونرجح أن ذلك كان متبعا فى العصر الاخشيدي أيضا .

وكان كثير من العبيد المعتقين يحملون السلاح وينخرطون فى سلك الجيش ، وكان بعضهم يصل الى مكانة عالية فيه ، وقد يعده ذلك لتقلد بعض الوظائف الرئيسية فى الادارة ، وفضلا عن ذلك كان لبعض الغلمان والجوارى سلطان كبير على ساداتهم .

ولكن المعتقين كانوا لا ينجحون تماما فى التخلص من وصمة الرق ، ولا ريب فى أن قصائد المتنبي فى هجاء كافور تفصح عن احتقار الرأى العام للأرقاء المعتقين ، وحسبنا قوله .

فَلَا تَرجُ الخَيْرَ عِندَ امرِئٍ مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ فِى رَأْسِهِ [٥]

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٢

(٢) المقريزى : المقفى (النص العربى فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٦

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٥

(٤) A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library 1. p. 61

(٥) ديوان المتنبي ص ٤٣٠

وقوله أيضا :

العبدُ ليسَ لحرٍّ صالحٍ بأخٍ لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيابِ الحُرِّ مَولودُ [1]

وكانت مصر فى العصر الاخشيدى غاصة بالعبيد الأباق ، شأنها فى ذلك شأن سائر ديار الاسلام فى القرن الرابع الهجرى . وكان معظم العبيد الأباق يشتغلون فى الأعمال الزراعية .

(١) ديوان المتنبي ص ٤٣٣

(٢)

الجيش والبحرية

(أ) الجيش

عرفنا أن الجيش والاسطول كانا عدة الاخشيد فى دخول مصر والتمكين لنفسه فيها بالقضاء على سلطان المعارضين لإمارته . وكان الجيش فضلا عن ذلك عدته فى صد غزوات أعدائه كابن رائق وسيف الدولة والفاطميين .

والمعروف أنه حين قدم الاخشيد إلى مصر كان الجند فيها قد انقسموا طائفتين : أهل الشرق أو المشارقة وعلى رأسهم قائد يدعى حبكويه ، والمغاربة وعلى رأسهم حبشى ابن احمد . وكان بين الطائفتين منازعات كثيرة أدت إلى نشوب القتال بينهما [١] . وأكبر الظن أن أساس تلك المنازعات تعدد الاجناس والطوائف التى كان يتألف منها الجيش فى ذلك الوقت .

وكذلك كان الجيش على عهد الاخشيد يتألف من ترك وسودانيين ومغاربة ومماليك من أجناس مختلفة . ويقال إن الجيش الاخشيدى بلغ اربعمائة ألف مقاتل فى مصر والشام [٢] . ولكن علينا أن نقبل هذا الرقم بتحفظ كبير لأن المبالغة فيه واضحة ، وحسبنا أن نفكر فى أن مثل هذا العدد لم يكن من السهل تموينه أو تدبير الثكنات له فضلا عن أنه لا يتناسب مع عدد سكان البلاد فى ذلك الوقت ولا مع القوة اللازمة للدفاع عنها .

ويقال ان جيش الاخشيد كان أعظم جيوش عصره فلما استدعاه المتقى واقترب من مدينتى الرقة والرافقة أشرف أهلهما على السواحل والأسوار ونظروا من عظم العسكر وحسن عدته مالم يشاهدوا مثله [٣] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٢ و ٢٨٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ وابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٢ نقلا عن كتاب العيون والحدائق (مخطوط برلين رقم ٩٤٩١ ص ٢١٣ ب) .

ولما توفى الاخشيد واستبد كافور بالأمر ولم يبق شيء من الأمر لأونوجور ولا لأخيه من بعده ضم إلى جيشه عدداً كبيرا من السودانيين [١] . والراجح أنه فعل ذلك ليكونوا عدة له ولا سيما بعد أن انقسم الجند إلى طائفتين: الاخشيدية والكافورية .

ولسنا نعرف من النصوص التاريخية ما يعيننا على البحث فى نظام الجيش الاخشيدى وعدده ورواتب القواد والجند وعتادهم وما إلى ذلك مما يعنى به المؤرخون المحدثون ، بعد أن كان المؤرخون المسلمون فى العصور الوسطى يهملونه إلى حد كبير .

والراجح أن حفظ النظام بين الجند فى العصر الاخشيدى كان أمرا شاقا وذلك لكثرة العناصر التى كان يتألف منها الجيش . ولكن الاخشيد وفق فى هذا الميدان بفضل حزمه وبعد نظره وما تهيأ له من صفات القيادة والزعامة . ولا شك فى أن الرواتب والمنح والعطايا التى كانت تغدق على القواد والجند كان لها أثر طيب فى كسب رضاء الجيش وبث الطاعة والاخلاص بين صفوفه . فضلا عن أن الحروب المتصلة والأخطار التى تعرضت لها الدولة ، كل ذلك جعل القواد والجند أمام أهداف يجب الوصول اليها وأعداء يجب التغلب عليهم فكان لا بد لهم من نظام يعينهم فى هذا السبيل .

وعلى الرغم من مهارة كافور وبعد نظره وخبرته فى القيادة والزعامة فان فريقا من الجند ساءهم استبداده بالأمر فانقسم الجيش ، كما مر بنا ، إلى جند ينصرون أبناء الاخشيد وآخرين ينصرون كافورا . ويبدو أن كافورا كان يعتمد على المال والعطايا فى القبض على زمام الجيش . ويقال ان القواد كانوا يجتمعون فى داره فيخلع عليهم ويمنحهم الهبات الكبيرة . ويروى أنه أمر لأحد القواد من أنصار أولاد الاخشيد بأربعة عشر الف دينار فى يوم واحد فظل هذا القائد عبدا له حتى مات [٢] .

أما بعد وفاة كافور فقد دبت الفوضى إلى صفوف الجيش وثار كثير من الجند على رؤسائهم وطالبوا بأرزاقهم ، وكان هذا كله من الأسباب التى أدت إلى انهيار الدولة

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٧

الاخشيدية ونجاح الغزو الفاطمى [١] . وذلك أن تدبير أمور الجند بعد وفاة كافور أصبح لسمول [٢] الأخشيدى [٣] ولكنه لم يكن موفقاً فى قيادته . ولا سيما بعد أن تعود الجند أن يشترى الأمراء طاعتهم بالمال والعطايا . وهكذا نراهم يطلبون إلى الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات من الأموال ما لم يستطع دفعه ، فلما تبين لهم عجزه نهبوا داره ودور نفر من أتباعه وكتب فريق منهم إلى الخليفة الفاطمي يزينون له فتح مصر [٤] .

ومن البيانات التى نعرفها عن الجيش فى العصر الاخشيدى أن محمد بن طغج كان يستعرض الجيش فى أيام الأعياد وفى بعض المناسبات الأخرى ، كما كان يفعل ابن طولون من قبله [٥] . وكان قواد الجيش يشتركون مع وجوه البلاد فى التشاور بشأن تولية الأمراء وإعلان الولاء لهم [٦] .

وكان محمد بن طغج الاخشيد وكافور يخرجان على رأس الجيش فى المعارك المختلفة فى معظم الأحيان . ولكن الاخشيد أناب عنه على بن محمد بن كلا على رأس الجيش الذى أرسله إلى الشام بعد مقتل محمد بن رائق [٧] . كما أرسل فاتكا وكافورا على رأس جيوش إلى الشام سنة ٣٣٣ هـ [٨] ، وكان يرسل اخوته فى بعض الأحيان على رأس المعارك الحربية المختلفة .

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١٢٩

(٢) فى بعض الروايات شمول بالشين المعجمة . أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠ حاشية

(٣) ينسب فى بعض الأحيان إلى كافور فيقال سمول الكافورى ، أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٦

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص٣٠٣، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص٢٣ و ٢٤

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص٣٢٧

(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩١

(٨) المرجع نفسه ص ٢٩٢

وكان من عادات الجند فى المعارك أن يرسلوا الأسرى إلى الحاضرة ومعهم رؤوس الجند القتلى للدلالة على ما أحرزوه من النصر والظفر ولتطمئن النفوس . وذلك أن ورود أى أخبار غير مطمئنة من ميدان القتال كان من شأنه أن يثير الذعر بين الناس حتى لقد يضطر أولو الأمر إلى الطواف فى الحاضرة لتهدئة الخواطر ومنع السكان من مغادرة المدينة [١] .

وقد وصلت إلينا وثيقة على ورق محفوظة الآن فى مجموعة الأرشيدوق راينر فى ڤينا تتضمن تقريراً مقدما من قائد فرقة من الجند قامت برحلة استطلاعية على حدود البلاد استغرقت اثنى عشر يوماً . وحدث أثناء عودتها إلى الفيوم أن أراد القائد اختصار الطريق فقاد الجند فى الصحراء وضل بهم الطريق ثلاثة أيام بلياليها وكاد الجند يموتون من العطش ولكن الله هيأ لهم النجاة فوصلوا إلى الفيوم سالمين [٢] .

(ب) البحرية

ومما يؤسف له أن النصوص التاريخية التى وصلت إلينا عن البحرية الاخشيدية نادرة جداً ، مع أننا نعلم أن صناعة السفن فى مصر وخاصة السفن الحربية كانت من أهم الصناعات فى فجر الإسلام ، كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى عظمة البحرية الإسلامية ، إذ كانت الخلافة تعتمد عليهم فى إنشاء أسطولها الحربى . بل المعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط وظل كذلك إلى زمن معاوية بن أبى سفيان . وكان اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية وكانت صناعة السفن مزدهرة فى جزيرة الروضة وفى القلزم (السويس) وفى الاسكندرية [٣] .

وكذلك اهتم الطولونيون بالبحرية . ولكن السيادة فى البحر فى ذلك العهد كانت قد عقدت لبنى الأغلب الذين هزموا الاسطول البيزنطى واستولوا على صقلية ومالطة

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٨

(٢) Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung p. 255 No. 986

(٣) أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩٠ — ٩٢ و٩٤ وماذكر فيه من المراجع القديمة و Aly Mohamed Fahmy : Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranaen

ونهبوا السواحل الإيطالية بل وصلوا أحياناً إلى روما . وكان هناك أيضاً ركن من الإمبراطورية الإسلامية اقتضى موقعه الجغرافى أن يكون له أسطول كبير . وهو منطقة الثغور بين أملاك الروم والمسلمين . والمعروف أن أسطول الخلافة فى طرسوس هو الذى قام بقيادة دميانة لمساعدة القائد محمد بن سليمان فى حملته على مصر ونجح فى القضاء على الأسطول الطولونى فى تنيس حين تعرض لمنعه من التقدم فى مياه النيل [١] .

ولما تقلد الاخشيد إمارة مصر دخل البلاد وأقبل معه أسطول بقيادة صاعد ابن كلم ودخل هذا الأسطول ثغر دمياط وسارت سفنه فى النيل بعد أن هزمت السفن المصرية فى شعبان سنة ٣٢٣ هـ . ووصل الأسطول إلى جزيرة الروضة واستولى على مافيها من السفن فى رمضان من السنة نفسها [٢] .

وقد عرفنا فى الفصول السابقة أن ابن طغج بعد أن دخل مصر ونزل بدار الامارة فيها ، ثار عليه بعض الثوار واشتبكوا مع جيوشه وأسطوله واستطاع هؤلاء الثوار قتل صاعد قائد أسطول الاخشيد ، كما أنهم أحرقوا كل ما فى جزيرة الروضة من السفن . ووقف ابن طغج تجاههم بجيشه ولكنه لم يستطع أن يقوم بأى عمل حاسم [٣] .

وكان هذا الحادث سبباً فى أن فكر ابن طغج فى نقل « الصناعة » من مكانها إذ قال : « صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشىء » [٤] . ويقال انه بدأ فى نقلها سنة ٣٢٥ من جزيرة الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة احمد ابن طولون وكانت هذه الدار بساحل الفسطاط . أما موضع الصناعة بالجزيرة فأقام مكانه البستان المختار [٥] وأصبح يطلق على دار خديجة اسم « الصناعة الكبرى » [٦] .

---

(١) أنظر Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 174-175 وما ذكر من المراجع القديمة .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٥ و ٢٨٦ ، وابن سعيد : المغرب ص ١٢ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩

(٣) الكندى الولاة والقضاة : ص ٢٨٦ و ٢٨٧ ، والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٧

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٧ ، وابن سعيد : المغرب ص ١٣

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٨١ و١٩٧ ، وابن سعيد : المغرب ص ١٨ ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٨ وعلى بهجت والبير جبريل : كتاب حفريات الفسطاط ص ٣٢ ، و Omar Tousson : Mémoioe sur l'histoire du Nil t. 2 p. 351

(٦) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ١٢

ولكن الظاهر أن انشاء هذه « الصناعة الكبرى » لم يقض تماما على « الصناعة » فى جزيرة الروضة . إذ يقول المقريزى : « وكانت مراكب الاسطول مع ذلك تنشأ فى الجزيرة وفى صناعتها »[١] .

ويقال ان تكين حينما كان يلى مصر فكر فى نقل الصناعة من الجزيرة ، واستشار بعض خاصته ، وكان من بينهم محمد بن طغج ففكر إذ ذاك فى دار خديجة ولكنه لم يذكر لتكين هذا الرأى . وتحدث الاخشيد بعد ذلك عما دار فى نفسه حينئذ فقال : « وقلت أدع هذا الرأى لنفسى إذا ملكت مصر ، فبلغت ذلك والحمد لله »[٢] .

ويشهد ذلك بأن الاخشيد كان يتطلع إلى حكم مصر ، فلا عجب إذا عمل على تحقيق هذا الهدف بكافة الوسائل .

ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئاً يستحق الذكر عن نشاط البحرية الاخشيدية خارج المياه المصرية وعن رجال الاسطول ورواتبهم وعن أنواع السفن التى كانوا يستخدمونها .

والظاهر أن المصريين كانوا يعرفون فى العصر الاخشيدي التقليد المتبع فى عصرنا الحاضر بشأن الاحتفال بانزال السفن إلى البحر حين يتم بناؤها . فقد كتب يحيى بن سعيد الانطاكى أن كافورا « ركب إلى دار الصناعة ووقف ليطرح مركباً حربياً عظيما كان بها إلى البحر . وكان على الشط مركب آخر مرسي فاجتمع الناس فيه وجلسوا على حافته وتزاحموا عليه لينظروا نزول المركب الآخر إلى البحر فانقلت ذلك المركب الذى كانوا مجتمعين فيه بهم ومال عليهم فقتلهم بأجمعهم وغرق عدة من المراكب اللاصقة له فى البحر مملوءة أناساً وهلك جميع من كان فيها ومات من الناس زهاء خمسمائة رجل »[٣] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٧

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٣

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١١٦ و ١١٧

(٣)

الأعيـــاد

كان الشعب فى مصر الاخشيدية يحتفل بأعياد المسلمين وأعياد النصارى ، فضلا عن المناسبات التى تحتفل فيها الأسرات بأعيادها الخاصة .

وكانت الحكومة تشترك فى الاحتفال بعيد الفطر، فيقيم الجيش عرضاً كبيراً ويتأهب الناس للاحتفال بالعيد فيقبلون على شراء ما يحتاجون اليه فى آخر شهر رمضان ويجلس الأمير فى منظرة على باب دار الامارة ويمر الجند أمامه فى أحسن ملابسهم ثم يتبعهم حرسه الخاص وينصب بعد ذلك السماط لأفراد الشعب فيأكلون ويحملون ما يريدون من الطعام[١] . ولسنا نعرف أى نص فى وصف هذا السماط ، ولكنا نقرأ فى وصف السماط الذى كان يقام بقصر الخليفة الفاطمى أن طوله نحو ثلاثمائة ذراع وعرضه سبعة أذرع[٢] . وكانت تعمل أسمطة أخرى فى عيد النحر .

ومن الأعياد التى كان المصريون يقبلون على الاحتفال بها عيد الغطاس . وقد سمى بهذا الاسم لأن كثيرا من النصارى كان يغطس فيه فى النيل . وكان من التقاليد القديمة بمصر الإسلامية أن يركب صاحب شرطة الفسطاط ليلة الغطاس فى مركب كبير وتوقد بين يديه الشموع والمشاعل فيطوف الشوارع وينادى فى الناس ألا يختلط المسلمون بالنصارى فى تلك الليلة وألا يكدروا عليهم عيدهم . وذلك أن النصارى كانوا فى سحر تلك الليلة يخرجون إلى شاطئ النيل ويغطسون فيه . وكانت بعض طوائفهم تخرج من كنيسة ميكائيل بقصر الشمع إلى شاطئ النيل فى جمع وفير بالقراءة الملحنة والصلبان المشهورة وتصلى ويخطب الأسقف فيهم ويدعو للسلطان « وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب فى هذا العيد من الطيبة والفرح ما لا يكون لهم فى غيره من أيام السنة وأعيادها »[٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٦

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٧

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١٩٦ — ١٩٧

وقد كتب المسعودى عن الاحتفال بليلة الغطاس بعد أن شاهده بعينيه ، قال : « وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها . وهى ليلة إحدى عشرة تمضى من طوبة وستة من كانون الثانى . ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل مطيف بها . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون ، ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ من الداء »[١] .

وكان القبط يحتفلون بعيد الميلاد فى التاسع والعشرين من شهر كيهك . والمعروف أن الفاطميين كانوا يشتركون فى الاحتفال بهذا العيد ويفرقون فيه الطعام والحلوى على كبار الموظفين[٢] . وليس لدينا من النصوص ما يؤكد اشتراك الاخشيديين مع القبط فى الاحتفال بهذه الذكرى . كما كان القبط يحتفلون أيضاً بخميس العهد — أو خميس العدس كما كان العامة يقولون — وذلك قبل عيد الفصح بثلاثة أيام . ومن التقاليد التى أدخلتها الدولة الفاطمية — بعد العصر الأخشيدى — ضرب نقود خاصة توزع فى هذا العيد[٣] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٥ و ٤٩٤ وج ٢ ص ١٥٤ ، أنظر أيضا متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ ، وترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١١٥ ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٥

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٥ و ٤٩٤

(٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٤٩٥ ؛ وانظر أيضاً : Silvestre de Sacy : Bibliothèque des Arabisants t. I. pp. 62-63

وكان المصريون يحتفلون فى العصر الاخشيدى بفتح الخليج وتشترك الحكومة فى هذا العيد . وقد زادت عنايتها بهذا الاحتفال منذ العصر الفاطمي [١] . كما كانوا يحتفلون أيضاً بالنوروز القبطى وهو أول السنة القبطية . ويبدو أن الاحتفال بهذا العيد كان يتميز بايقاد النيران وصب الماء فى الطرق . وقد منع المعز لدين الله الفاطمى هذا العبث عند ما بالغ العامة فيه سنة ٣٦٣ وسنة ٣٦٤ هـ [٢] .

وكان المصريون يتزاورون للتهنئة فى أيام الأعياد . والظاهر من بعض النصوص أن الأثرياء منهم كانوا يقدمون هدية من المال حين يزورون الفقراء من أصدقائهم [٣] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٧٠ و٤٩٣ والقلقشندى ج ٣ ص ٥١٨ — ٥٢١ ج ٨ ص ٣٢٨ — ٣٣٠

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٦٧ و٢٦٨ و ٤٩٣

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٣ و ٣٤

(٤)

الأخلاق والعادات

يبدو أن النزعة الدينية فى مصر على عهد الاخشيديين وفى القرن الرابع بوجه عام كانت أقوى منها فى بلاد الشرق الاسلامى . ولسنا نظن أن كثيراً من عامة المصريين فى ذلك الوقت كانوا يعتقدون أن الدين من شأن الطبقة الارستقراطية وأن الذين يجب عليهم أن يحافظوا على الصلاة هم الأغنياء والأمراء وأصحاب الضياع والأموال . والواقع أن مثل هذه الآراء كانت أكثر انتشاراً فى شرقى العالم الاسلامى حيث كانت نفوس العامة تثور على ما ينعم به الترك من ترف وما لهم من سلطان فى شئون الدولة . وفى ذلك يقول احمد بن محمد الافريقى الشاعر المعروف بالمتيم وهو من شعراء بخارى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى [1] :

تلومُ على ترك الصلاةِ حليلتى ... فقلت اعزِبى عن ناظرِى ، انتِ طالقُ

فو اللهِ لا صليتُ للهِ مُفْلِساً ! ... يصلى لهُ الشيخُ الجليلُ وفائقُ

وتاشٌ وبكتاشٌ وكُنباش بعدَه ... ونصرُ بنُ مَلْكٍ والشيوخُ البطارِقُ

وصاحبُ جيش المشرقينِ الذى له ... سراديبُ مالٍ حشوُها متضايقُ

لماذا أصلى ؟ أين باعِى ومنزلى ؟ ... وأين خيولى والحُلى والمناطِقُ ! ؟

أما فى مصر فكان القوم أكثر خضوعا لأولى الأمر وانصرافا إلى شئون دنياهم وآخرتهم . ومع ذلك كان كثير منهم بعيداً عن التدين الصحيح كما سنتبين فى الصفحات القادمة .

وكان الاعتقاد بالخرافات والكرامات شائعاً بين مختلف طبقات الشعب . ومن ذلك أنه فى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) « ورد الخبر من دمياط إلى مصر بأن رجلا أقطع اليد قديماً ممن قد أخذ مع قوم اتهموا بقطع الطريق غاب عن البلد زمانا ثم عاد ويده صحيحة .

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ والصفدى : الوافى بالوفيات ج ١ ص ٩٢

وقد ادعى أنها كانت مقطوعة وأنها كانت عند أهله وقال إنه كان فى مسجد يتعبد فيه وأن يده عادت صحيحة ، فافتتن الناس به وكثر القول فيه . فوجه الاخشيد من أحضره إلى داره وسأله عن قصته فقال : رأيت فى النوم كأن سقف المسجد قد انفتح ونزل إلى منه ثلاثة أنفس : النبى وجبريل وعلى عليهم السلام . فسألت النبى صلى الله عليه وسلم رد يدى فردها إلى وانتبهت وقد عادت . وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من المستورين رأوه مقطوع اليد ، فأوصله الاخشيد اليه وأكبره واستعظم قدرة الله تعالى فيه ثم قيل إن هذا دلس وكذب وزالت الفتنة والله أعلم [١] » .

وقد روى الفرغانى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ قصة عن زاهد ورع اسمه أبو سهل الصدفى توفى سنة ٣٣١ هـ وكان الاخشيد يجله ويتبرك بدعائه قال : « حدثنى أبو سهل بن يونس فى مسجده سنة ٣٣٠ هـ قال : قدم علينا شيخ كبير راهب كان بميافارقين . فحدثنا أنه كان مترهباً فى شبابه فى صومعة بميافارقين وأنه أشرف فى يوم كثير الضباب فنظر إلى طائر قد سقط بحيث يراه وفى فمه قطعة لحم فتركها ثم طار فأتى بأخرى ثم أخرى إلى أن أتى بعدة قطع ثم أن قطع اللحم اجتمعت حتى صارت شخص رجل . ثم أقبل الطائر عليه ينقره ويقطعه ويأكله وهو يستغيث . قال الراهب : فلما نظرت إليه صحت به وقلت له : ماقصتك ياإنسان ؟ وما الذى أرى بك ؟ قال : أنا عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، قد وكل الله بى هذا الطائر ، يفعل بى ماترى ، وينقلنى من موضع إلى موضع ، قال الفرغانى : قال أبو سهل : قال لنا الراهب : فلما نظرت منه ماورأيت انحدرت من الصومعة فأسلمت » [٢] .

وقد وصلت إلينا وثيقة على ورق محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا وتتضمن طلسما للدغة العقرب . وهى ترجع إلى العصر الاخشيدى وفيها رسم عقرب حوله علامات ورموز سحرية [٣] .

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٤٥ نقلا عن مخطوط كتاب العيون والحدائق (برلين) ص ٢٠٩ ب و ٢١٠ ا .

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ١١٥ و ١١٦ نقلا عن مخطوط كتاب العيون والحدائق (برلين) ص ٢٠٨ ا و ٢٠٩ ا .

(٣) Papyrus Erzherzog Rainer : Führer durch die Ausstellung p. 255 No. 999

وكان الشراب منتشراً رغم نهى القرآن عنه . ولم يكن وقفاً على الشبان بل كان الشيوخ لا يتورعون عن الإغراق فيه . ويحكى عن ابن طباطبا نقيب الطالبيين بمصر (المتوفى سنة ٣٥٢ هـ) أنه كان له شعر فى الخمر ، ومن ذلك قوله :

يابدرُ بادِرْ إلىَّ بالكأسِ فربَّ خيرٍ أتَى على يأسِ [١]

ومنه :

أأتركُ الشُربَ والأنواءُ دائمةٌ والطل منها على الأشجار منثورُ
والغصنُ يهتزُّ كالنشوانِ من طَرَبٍ والوردُ فى العودِ مطويٌّ ومنشورُ
لا والتى تركَتْنى يوم فُرْقَتِها كأنما الرملُ فى عَيْنَىَّ منثورُ [٢]

ويروى أن لابنه أبى محمد القاسم بن أحمد الرسى شعراً فى الخمر ، ومنه :

إذا الكروانُ صاحَ على الرمالِ وحلَّ البدرُ فى برجِ الكمالِ
وجَعَّدَ وجهَ بركتِنا هبوبٌ تمر به الجنوبُ مع الشَّمالِ
وحرَّكَتِ الغُصونَ فشابَهَتْهَا قدودُ سُقاتِنا فى كل حالِ
فَهاتِ الكأسَ مُترعةً ودَعْنِى أبادرُ لذتِى قبل ارتحالِى [٣]

ويقال أن محمد بن على الماذرائى كان يشرب الخمر ثم تركها وأقبل على الصلاة والصيام [٤] .

وكان سباق الخيل كثيراً فى مصر منذ القرن الثانى الهجرى . وفى سنة ٣٢٤ هـ شرع الاخشيد فى إجراء حلبة السباق تشبهاً بأحمد بن طولون . وانتشر سباق الحمام

---

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٦٩
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٩
(٣) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧٠
(٤) المقريزى : المقفى (النص العربى فى رسالة جوتشلك) ص ١١٧

فى عصر الاخشيديين وظل إلى العصر الفاطمى ، ويروى أن الخليفة المعز سابق بحمامه حمام الوزير أبى الفرج يعقوب بن كلس فسبق حمامه حمام الخليفة وعظم ذلك على المعز [١] . وكان الفهار منتشراً فى مصر على عهد الاخشيديين . وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من جملة المهام التى يقوم بها المحتسب . وقد مر بنا أن الاخشيد أمر بغلق المواخير ودور القمار وعرفنا أن هذه الدور كان بها شيوخ يسمون المطمعين ولهم رواتب من دور القمار ليجلبوا الناس إليها ويطمعونهم فى اللعب [٢] . وكذلك عمل أحمد بن على الاخشيد على تعطيل المواخير [٣] .

وليس فى النصوص التى نعرفها عن العصر الأخشيدى أى ذكر للبغاء وإن كنا نعرف أن الفاطميين فرضوا الرسوم على بيوت الفواحش [٤] ، بعد أن سبقهم إلى ذلك عضد الدولة فى فارس [٥] . ويبدو أن اللواط كان منتشرا فى مصر على عهد الأخشيديين [٦] . والواقع أنه شاع فى القرن الرابع فى كثير من البلاد الإسلامية [٧] .

ومما يؤسف له أن نظام السجون فى العصر الاخشيدى غير واضح فى النصوص التاريخية التى وصلت إلينا . والراجح عندنا أن الحكومة كانت تتحمل قسطا من نفقات السجون وثمن أقوات المحبوسين ، فقد كانت الحكومة المركزية فى بغداد تعرف هذا النظام فى عصر المعتضد بالله (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) وكان يخصص له فى الميزانية ألف وخمسمائة دينار [٨] . وفى العصر الفاطمى كانت السجون المصرية تضمن وكان الاقبال على التزامها عظيما ، لأن متضمنها كان يحصل منها على دخل كبير ،

(١) الغزولى : مطالع البدور ج ٢ ص ٢٦٠
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٠
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧
(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٩
(٥) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ وما ذكره من المراجع القديمة .
(٦) ابن زولاق : أخبار سيبويه ص ٤٠ و٤٢ و٥٦
(٧) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٣٤ — ١٤٠
(٨) هلال الصابى : تاريخ الوزراء ص ٢١

فقد كان كل من يدخل السجن يدفع ستة دراهم ولو لم يقم به إلا لحظة[١] . وأكبر الظن أن المسجونين كانوا يستطيعون أن يشتغلوا بصناعة أشياء يبيعونها كما يريدون[٢] . وكان متضمن السجون يمكنه أن يكسب كثيراً من رعاية بعض ذوى المكانة من المسجونين . ولسنا نظن أن تضمين السجون كان معروفاً فى العصر الأخشيدى . فليس فى النصوص التاريخية أى أشارة إلى ذلك .

والظاهر أن بعض المذنبين كانوا يحبسون فى العصر الاخشيدى فى مكان فى دار الصناعة على شاطئ النيل يعرف باسم بيت الزفت[٣] .

ويبدو كذلك أن المسجونين كانوا يعطون — أو تحرر لبعضهم على الأقل — شهادة باليوم والساعة التى يطلق سراحهم فيها . ويتبين ذلك من وثيقة من الورق محفوظة فى دار الكتب المصرية (رقم السجل ١٧٥)، ونصها[٤] :

« بسم الله الرحمن الرحيم — الساعة التى أطلق فيها ابو السمح عقبة بن خليفة بن محمد الفضالى أيده الله ويتم الله خلاصه بمنه وكرمه على خمسة ساعات بقيت من يوم السبت لأربع عشرة بقيت من شعبان الجارى فى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة . وكتب عامر بن يزيد بن مجد الله شهادته بخطه » .

وفى ظهرها :

« تذكرة الساعة التى خلى فيها ابو السمح عقبة بن خليفة أيده الله » .

ومن المحتمل أن تكون هذه شهادة بتاريخ إطلاقه مؤقتا للتحقيق معه أو لأى غرض من الأغراض ، وذلك لأن عبارة : « ويتم الله خلاصه بمنه وكرمه » قد تحملنا على الظن بأن اطلاق سراحه لم يكن نهائياً . ومهما يكن من الأمر فالظاهر أن هذا المسجون

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٩

(٢) وازن ابن الداية : المكافأة ص ٢٥

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه ص ٣٠

(٤) A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library 11 pp. 197-198

كان من ذوى المكانة ، كما تشهد بذلك تكنيته بأبى السمح والدعاء له بعبارتى « أيده الله » و « يتم الله خلاصه بمنه وكرمه »[١].

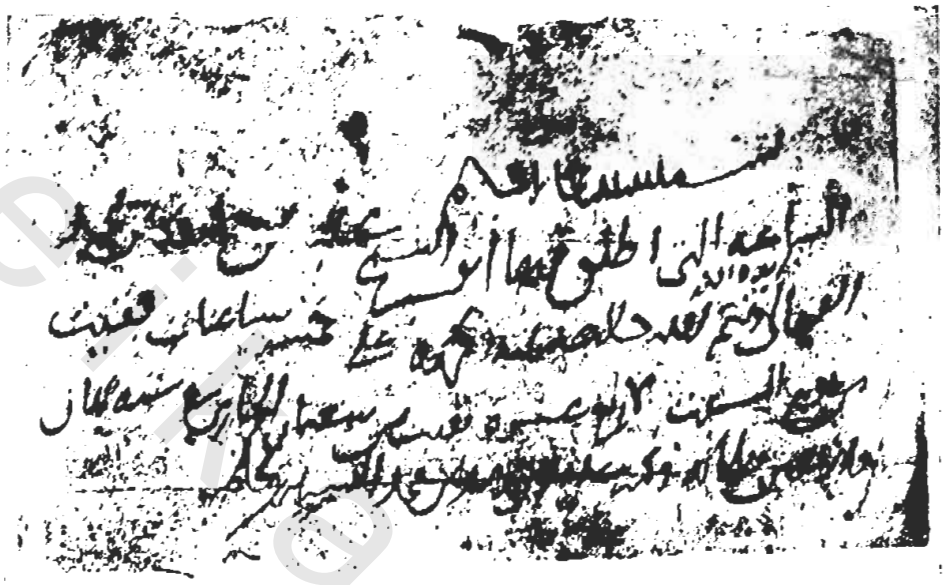

شكل (ب) وثيقة بردية من سنة ٣٤٨ هـ محفوظة بدار الكتب المصرية

[عن جرومان]

ومن الطريف أن مصر كانت تعرف فى العصر الاخشيدى ما نعرفه ونأسف له فى عصرنا الحالى من اعتبار الصعيد الأعلى منفى يرسل إليه المغضوب عليهم . ومن ذلك أن محمد بن تكين نفى إلى اخميم بعد أن هزمه أحمد بن كيغلغ[٢] .

---

(١) مما يجدر بنا ملاحظته أن الذين كانوا يتقلدون المناصب الكبيرة لم يكونوا فى مأمن من أن ينكبوا ويلقى بهم فى السجون أو تصادر أملاكهم . وصفوة القول أنهم كانوا تحت رحمة أولى الأمر . ومن طريف ما يروى أن محمد بن على الماذرائى اتخذ رشيقا الخادم حاجباً له فلما مضت عليه سنة فى هذه الوظيفة وشى به بعض الناس إلى الماذرائى واتهموه بأنه كسب من الرشوة عشرة آلاف دينار فخاطبه الماذرائى فى ذلك فحلف بالايمان المغلظة على بطلانه . فأقسم الماذرائى قائلا : « ان خرجت سنتنا هذه ولا تكسب هذه الجملة لاصبتنى !! » ولم يزل رشيق فى خدمة الماذرائى حتى صودر الأخير وأخذ الأمير منه ومن حاجبه مالا جزيلا . أنظر المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٠

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١١ و١٤

ولكن الغريب أن الاسكندرية كانت تعتبر من الأماكن التى ينفى إليها غير المرغوب فى بقائهم بالحاضرة [١] .

* * *

وكان الأغنياء من المصريين فى العصر الاخشيدى يسرفون فى الطعام فكانت موائدهم عامرة بما لذ وطاب من أنواعه . بل انهم كانوا يحرصون على تقديمها فى الأوانى الجميلة من الخزف المصنوع فى مصر أو المستورد من الخارج . وقد روى ابن زولاق أنه عندما كان محمد بن طغج الاخشيدى يلى الحوفين من قبل محمد بن تكين كانت أمه معه فى مصر فسلمها خمسمائة دينار لتحفظها له ولم يكن يملك غيرها . وحدث ذات يوم أن كان الاخشيد « يأكل وعنده جماعة وعلى المائدة غضار [٢] وطيافير [٣] قد تفشرت ، فاغتمت وأخرجت من الخمسمائة دينار مائتى دينار واشترت مائدة حسنة وغضارا صينيا وطيافير جوداء » [٤] . والواقع ان هذا النص يصور لنا شيئا من مستوى المعيشة فى ذلك العصر ، أساسه ان والدة الاخشيد انفقت نحو مائة جنيه فى شراء مائدة جديدة مع مايلزمها من الأوانى الخزفية .

ومن ألوان الأطعمة التى كان علية القوم يقبلون عليها فى العصر الاخشيدي الحماضية . وكانت تصنع من عصير البرتقال وماء الورد والمسك والأفاويه فى الحصرم [٥] . وكان الولع بالسكر والحلوى ظاهرا فى هذا العصر [٦] . ومن لطيف الشعر الذى يشير الى الطعام والولائم فى هذا العصر قصيدة للشاعر عبيد الله بن محمد بن أبى الجوع

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٥

(٢) الغضار الصحفة أو الصحن الكبير من الفخار أو الخزف . أنظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes II. p. 216

(٣) الطيافير جمع طيفور وهو الصحن القعر العميق ، أنظر المرجع نفسه ج ٢ ص ٤٨

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٩

(٥) المرجع نفسه ص ٣١

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٢

الذى اتصل بالمتنبي وروى عنه . وقد كتبها الى بعض إخوانه يستدعيه لمأدبة طعام وشراب وتحدث فى أبياتها عن الشواء والحلوى والخمر الذى أعدها لهذه المأدبة [١] .

وكان فى أسواق الفسطاط كثير من أصناف الأطعمة التى تعد للبيع بعد طهيها ولا سيما الشواء [٢] والحمص المسلوق [٣] ، وكان بها طباخون يبيعون الطبيخ [٤] .

وعرف الأغنياء فى مصر الاخشيدية الماء المثلج . وكان الثلج يحمل من الشام الى قصر كافور الاخشيدى بمصر ليستعمل فى تبريد الماء والمشروبات . ولكن الظاهر أنه لم يكن يصل الى مصر كل يوم بانتظام [٥] .

* * *

وكان القوم يقبلون فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات ، ولكن يبدو أن أهل الورع والتقوى من الفقهاء والعلماء كانوا يتحرجون من سماع الغناء . ومما يروى فى هذا الصدد أن الاخشيد سخط مرة على مقبل المغنى فحبسه ، فطلب من الفقية أبى بكر الحداد أن يشفع فيه عند الأمير ففعل . وقبل الاخشيد شفاعته ووعد بأن يطلق سراح المغنى ويبعث به الى ابن الحداد . فلما انصرف ابن الحداد دعا الاخشيد مقبلا فقال له : « وتربة طفج لئن خالفتنى لأردنك الى الحبس ! قد شفع فيك ابن الحداد الفقيه فخذ العود فامض وغن له . « فركب مقبل الى ابن الحداد بالعود فدخل اليه فشكره وقال له : « قد أمرت بأمر لا أدرى والله كيف أفعله » ففطن ابن الحداد وقال : « والله ما سمعته قط إلا فى دور الناس من السطح » . وقام مقبل وجاء الى دار الاخشيد وحلف أنه حمل العود ولكنه وجد عند ابن الحداد جمعا من العلماء والفقهاء وقص على الأمير جواب ابن الحداد [٦] .

---

(١) انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٥٤

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٣

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١

(٤) ابن ظافر الازدى : أخبار الدول المنقطعة (فى وستنفلد) ج ٤ ص ٥٩

(٥) القزوينى : مطالع البدور ج ٢ ص ٧١ ، أنظر أيضاً متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١١

(٦) ابن سعيد : المغرب ص ١٨

ومهما يكن من الأمر فان الاخشيد نفسه كان يطرب لسماع المغنين والمغنيات . وقد وصل الينا حديث مأدبة أقامها محمد بن على الماذرائى جمع فيها المغنين من الرجال والنساء [١] .

وكان من عادات القوم فى الحفلات والمناسبات السعيدة أن ينثروا النقود على الحاضرين . وكان هذا تقليدا فى المآدب التى يقيمها الأمير أو التى تقام له [٢] ، ولكنه تقليد عرفته مصر فى العصر الطولونى أيضا [٣] .

ويبدو أن بعض الأغنياء من المصريين فى العصر الاخشيدى لم يكونوا يتأنقون فى ملابسهم فحسب ، بل كانوا يفخرون بالحصول على النادر والثمين منها . وكانت الفراء الغالية معروفة فى هذا العصر [٤] . ومما يؤسف له أننا لم نستطع أن نعرف كل أنواع الملابس المنتشرة بين المصريين حينذاك ، كما لم نستطع أن نعرف هل كانت لبعض الطوائف — كالجند والشرطة مثلا — أزياء خاصة تميزهم عن غيرهم . وعلى كل حال فإن أهم ما نعرفه من الملابس فى ذلك العصر الدراعة والطيلسان والسراويل والحفتان [٥] .

وكان إقبال وجوه القوم على الروائح العطرية عظيما . وقد روى ابن زولاق أن الحسين بن أبى زرعة قاضى مصر كان يبالغ فى التطيب ، ويذكر أن طغج بن جف والد الاخشيد كانت له فى دمشق « قبة مشبكة يتطيب فيها ، فاذا تطيب لم يخف على أكثر أهل دمشق بخوره [٦] . وكان الاخشيد يحب العنبر ويجمع منه مقادير كبيرة [٧] . وأكبر الظن أن كثيراً من الروائح العطرية كان يستورد من إيران [٨] .

* * *

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩
(٢) المرجع نفسه ص ٢٩
(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١
(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٣٤
(٥) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٨٦ — ١٩١ وراجع Dozy : Dictionnaire des vêtements chez les Arabes
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٥
(٧) المرجع نفسه ص ٣٥ — ٣٦
(٨) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٥

وكانت الحمامات العامة معروفة فى مصر على عهد الاخشيديين ، ولكن يبدو أن المتزمتين من المسلمين كانوا ينظرون اليها نظرة ارتياب [١] ، ولا عجب فانه يروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : « بئس البيت الحمام! تكشف فيه العورات، وترتفع فيه الأصوات، ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله » [٢] . وكان الغنى يستطيع أن يستأجر الحمام كله فيخلى له ولا يسمح بدخول غيره إلى أن يغادره [٣] . ويبدو أن سرقة الثياب من الحمام كانت أمراً شائعاً فى ذلك العصر حتى قيل : « دعوتان مغفول عنهما عند دخول الحمام : سلمك الله من الزلق ، وحرس ثيابك من السرق ! » [٤] .

* * *

والراجح أن عقود الزواج وبعض الوثائق الأخرى فى المعاملات بين الناس كانت تحرر من أكثر من نسخة واحدة ، كما يتبين من بعض وثائق وصلت الينا . ومنها ورقة محفوظة فى دار الكتب المصرية وترجع إلى سنة ٢٩٧ هـ أى إلى قبيل العصر الاخشيدى [٥] .

وقد وصل الينا عدد من الوثائق يتضمن عقود زواج ، ولكنها ترجع إلى نهاية القرن الثالث أو بداية القرن الرابع الهجرى ، وليس من بينها ما يرجع إلى العصر الاخشيدى . ولكنا — إذا تذكرنا أن التطور بطىء فى مثل هذه الطقوس والتقاليد — عرفنا أننا نستطيع أن نستنبط من هذه الوثائق بيانات كثيرة عن الشؤون المتصلة بعقود الزواج من خطوبة وشهود ومهر معجل ومؤخر ووصايا بحسن الصحبة والمعاشرة والأمر بامساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، واشتراط من جانب الزوجة أن يكون لها حق طلاق أى امرأة يتزوجها الزوج بعدها وبيع أى جارية يتخذها بعد زواجهما [٦] .

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٥ ، وما ذكره من المراجع القديمة .

(٢) الغزولى : مطالع البدور ج ٢ ص ١٧

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠

(٤) المرجع نفسه ص ٤٠

(٥) A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library, I, p. 119

(٦) أنظر المرجع نفسه ج ١ ص ٦٥ — ١٢١

كما وصلت الينا وثيقة محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا تتضمن بيان بعض حوائج تتجمل بها احدى العرائس فى القرن الرابع الهجرى . ومن هذه الحوائج الحنا وماء الورد والخروب والدارصينى فضلا عن نعل من نعال السند المشهورة [١] .

* * *

وكان الصيد من الرياضات المحببة إلى وجوه القوم فى مصر على عهد الاخشيديين ولا سيما فى اقليم الحوف [٢] . ولكن الاقبال على هذه الرياضة فى الشام كان أعظم منه فى مصر [٣] .

« وكان الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابه يهوى النظر إلى الحشرات من الأفاعى والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجرى هذا المجرى . . . وكان فى داره قاعة لطيفة مرخمة ، فيها سلل الحيات ولها قيّم فراش حاو من الحواة ومعه مستخدمون برسم الخدمة ونقل السلل وحطها . وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر عليه من الحيات ويتباهون فى ذوات العجب من أجناسها وفى الكبار وفى الغريبة المنظر . وكان الوزير يثيبهم فى ذلك أوفى الثواب ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا فى تحصيلها . وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة ويدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما فى السلل ويطرحونه فى ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يتعجب من ذلك ويستحسنه . فلما كان ذات يوم أنفذ رقعة إلى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب — وكان من أعيان كتاب آبائه ودولته ، وكان عزيزا عنده وكان يسكن فى جواردار ابن الفرات — يقول له فيها : نُشعر الشيخ الجليل — أدام الله سلامته ! — أنه لما كان البارحة وعرض علينا الحواة الحشرات الجارى بها العادات

---

(١) Papyrus Erzherzog Rainer: Führer durch die Ausstellung p. 256. No 1014

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٣) أنظر ديوان المتنبى ص ١٨٤ و ١٨٥ و ٢٠٣ ، والغزولى : مطالع البدور ج ٢ ص ٢١٧ ووازن متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١٩ و L. Mercier : La Chasse et les Sports chez les Arabes .Zaky M. Hassan : Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages.

انساب إلى داره منها الحية البتراء وذات القرنين الكبرى والعقربان الكبير وأبو صوفة، وما حصلوا لنا إلا بعد عناء ومشقة، وبجملة بذلناها للحواة. ونحن نأمر الشيخ — وفقه الله تعالى! — بالتوقيع إلى حاشيته وصيته بصون ما وجد منها إلى أن تنفذ الحواة لأخذها وردها إلى سلالها. فلما وقف ابن المدبر على الرقعة قلبها وكتب فى ذيلها: أتانى أمر سيدنا الوزير — أدام الله نعمته وحرس مدته! — بما أشار إليه فى أمر الحشرات. والذى يعتمد عليه فى ذلك ان الطلاق يلزمنى ثلاثا إن بت أنا أو أحد من أولادى فى الدار، والسلام »[1].

* * *

وكان لبعض الأطباء فى ذلك العصر سكرتيرون أو مديرو أعمال كانوا يتسلمون أجور العلاج، كما يتبين من وثيقة على ورق محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا تتضمن أمرا من طبيب إلى سكرتيره بأن يكتب لشخص اسمه حسين بن شعيب وصل بالنقود التى دفعها للطبيب نظير تشريطه[2].

وكان استئجار البيوت للاقامة بها معروفا فى مصر الاخشيدية. وطبيعى أن المماطلة فى دفع أجورها لم تكن أمرا نادرا[3]. ولكن ما وصل إلينا من النصوص لا يشهد بأن الفنادق والربط والخوانق كانت معروفة بمصر فى ذلك العصر، وان كانت مألوفة فى إيران[4].

* * *

وكان للآثار المصرية القديمة شأن عظيم فى العصر الاخشيدى، فكان القوم يعجبون بها وينسبون لها القوى السحرية ويذهبون فى تفسيرها مذاهب شتى. ومن أخبارهم فى هذا الشأن صور عديدة دونها المسعودى الذى زار مصر حينذاك. فقد حدثنا عن احدى ملكات مصر القديمة قال انها ملكت ثلاثين سنة « واتخذت بمصر البرابى

(١) ياقوت: معجم الأدباء ج ٧ ص ١٧٠ — ١٧١ والمقريزى: الخطط ج ٢ ص ٣١٩

(٢) Papyrus Erzherzog Rainer: Führer durch die Ausstellung p. 256 No. 1032

(٣) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى ص ٢٣ و ٢٨ و ٢٩

(٤) وازن متز: الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٤٤ — ٣٤٥

والصور وأحكمت آلات السحر وجعلت فى البرابى [١] صور من برد من كل ناحية ودوابهم ابلا كانت أم خيلا ، وصورت ما يرد فى البحر من المراكب من بحر المغرب والشام ، وجمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان . وجعلت ذلك فى أوقات حركات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية . فكانوا إذا ورد اليهم جيش من نحو الحجاز واليمن عورت تلك الصورة التى فى البرابى من الابل وغيرها [٢] فيتعور ما فى ذلك الجيش وينقطع عن مصر أذى جنده . واذا كان الجيش من جهة الشام أتلفوا الصور التى تمثل أهل هذا القطر فينكب هذا الجيش وتنجو مصر من أذاه » [٣] .

والواقع أن المصريين فى العصر الاخشيدى وفى العصور الوسطى عامة كانوا يرون فى الآثار المصرية القديمة كنوزا يسعد بعضهم عند العثور عليها ويجد آخرون فى الكشف عنها حتى كانوا يسمونها « المطالب ». وكان أهم ما ينشدونه التحف المصنوعة من المعادن النفيسة . وفى ذلك يقول المسعودى « ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض وتدعى « المطالب » [٤] .

وتحدث المسعودى عن اشتراك الاخشيد فى البحث عن بعض هذه الكنوز الأثرية فقال : « وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلبة الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر وقع اليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة [٥] ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها بأن فيها مطلبا عجيبا فأخبروا الاخشيد محمد بن طغج بذلك ، فأذن لهم

---

(١) جمع برى وهى كلمة من القبطية ومعناها المعبد . انظر Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes I. p. 63.

(٢) راجع عن الصور وأثرها السحرى عند الساميين تعليقات الدكتور زكى محمد حسن على كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا ص ١٣٦ — ١٣٨

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٩ — ٤٠٠ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٩

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٤ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠

(٥) أى الكتابات والحروف القديمة .

فى حفره وأباح لهم اعمال الحيلة فى استخراجه . فحفروا حفرا عظيما الى أن انتهوا إلى أزج وأقباء[١] وحجارة مجوفة فى صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من نوع الخشب قد طلى بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء والصور مختلفة فيها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ومنها ما وجوهها ذهب وفضة . فكسر بعض تلك التماثيل فوجد فى أجوافها رمما بالية وأجساما فانية . وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية كالبرابى وغيرها من الآلات من المرمر والرخام وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الإناء . والطلاء دواء مسحوق وأخلاط معمولة لا رائحة لها فجعل منه على النار ففاح منه روائح طيبة مختلفة لا تعرف فى نوع من الأنواع التى للطيب . وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم . وبازاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر والمرمر أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل . والصور عليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملل . وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض أعنى أرض مصر أربعة آلاف سنة »[٢] .

وأكبر الظن أن هذه الاستكشافات التى أشار اليها المسعودى كانت فى مقبرة من مقابر الدولة القديمة وأن التماثيل التى ذكرها يشبه بعضها ما نعرفه من تماثيل هذا العصر فى تاريخ مصر القديم كتمثال شيخ البلد والكاتب الجالس القرفصاء والأميرة نفرت والأمير رع حوتب[٣] ، كما أن بعضها الآخر نواويس على هيئة تماثيل .

* * *

(١) الأزج البيت يبنى طولا والقبو البناء المعقود بعضه إلى بعض على هيئة القبة .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٧ — ٤١٩

(٣) انظر Denison Ross : The Art of Egypt through the Ages pp. 97—115 .

وكان اكتراء الحمير فى العصر الاخشيدى وسيلة عادية للانتقال بين سكان المدن ولا سيما الفسطاط . أما فى الريف فكان معظم أهل الطبقة الوسطى يمتلكون حميراً لهذا الغرض . وكان فى الفسطاط موضع لاكتراء الحمير فى مكان يعرف باسم دار الحمر[١] . وكان لكثير من أهل الطبقة الوسطى فى المدن حمير ينتقلون بها ويعيرونها أصدقاءهم فى بعض الأحيان[٢] .

* * *

والراجح أن الاستئجار لم يكن للمساكن أو الحمير فحسب بل كان الناس يستأجرون الأثاث أيضا[٣] .

ومن العادات الطريفة التى عرفتها مصر فى العصر الاخشيدى جمع المال من الناس تبرعا للشئون الدينية والأهداف الوطنية بوساطة صندوق يوضع فى الجامع ليطرح الناس فيه مايتبرعون به . ولكن الاقبال على مثل هذا التبرع كان نادرا ، وأكبر الظن أن ذلك يرجع إلى اعتقاد الشعب بأن الأمير والحكومة يستطيعان النهوض من مال الدولة بالمشروعات التى يراد أن يجمع لها المال من الشعب . وقد حدث أن وردت كتب أهل الثغور إلى الاخشيد تستحثه على فداء الأسرى المسلمين عند الروم فأمر الاخشيد بصندوق فجعل فى الجامع العتيق ليطرح الناس فيه ولكنهم لم يطرحوا شيئا يستحق الذكر ، فأنفذ الاخشيد السفن والمال لفدية الأسرى من جيبه الخاص أو من مال الدولة بمعنى آخر[٤] .

* * *

والراجح أن الصياح على الجنائز كان مألوفا بمصر فى العصر الاخشيدى ، وإن كنا لا نعرف نصوصا تاريخية صريحة فى هذا الشأن . ولكن القرائن تشهد

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٣٢
(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٠
(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٢٨ وما ذكره من المراجع القديمة .
(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٨

بوجوده . فالمعروف أن ولاة مصر قبيل الدولة الطولونية عملوا على منع النداء على الجنائز [١] ، وعلى سجن النائحات ومنع النساء من زيارة المقابر [٢] ، وأمر بعضهم بمنع النساء من الصياح على الموتى وبألا يشق على ميت ثوب ولا يسود وجه ولا يحلق شعر [٣] . كما نعرف أيضا أن والى مصر عيسى النوشرى أمر فى سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٧ م) بمنع النواح والنداء على الجنائز [٤] . ولكن الظاهر أن هذا المنع المتكرر لم يكن ليستطيع القضاء على تلك العادات التى عرفها الشعب المصرى منذ العصور القديمة ، كما يتبين من الرسوم التى نقشت على الآثار الفرعونية ولا سيما فى الدولة الحديثة [٥] . فلا عجب إذا رأينا أن الحاكم بأمر الله « حظر على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز ومنع من البكاء والعويل وخروج النوائح بالطبل والزمر على الميت » [٦] .

وكان وجوه القوم وعلماؤهم يدفنون فى دورهم ثم ينقلون بعد فترة من الزمن إلى المقبرة . ومن الأمثلة التى نعرفها فى هذا الصدد محمد بن على الماذرائى حين توفى سنة ٣٤٥ هـ [٧] .

* * *

وقد خطا المسلمون خطوات واسعة فى تنظيم نقل البريد فى القرن الرابع الهجرى بواسطة الحمام . ويبدو أن القرامطة كانوا أول من استعملوه فى العراق على صورة واسعة النطاق [٨] . ومهما يكن من الأمر فان استعماله انتقل إلى مصر والشام أيضا . ومما يروى ابن زولاق أن الاخشيد خرج يوما للصيد على مقربة من دمشق فرأى

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠٣

(٢) المرجع نفسه ص ٢١٠

(٣) المرجع نفسه ص ٢١١ وانظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٩٢ — ١٩٣

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٦

(٥) E. Drioton et Vandier : L'Egypte p. 105

(٦) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١٨٦

(٧) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ وانظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

(٨) انظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ ، وما ذكره من المراجع القديمة .

حاما فأرسل عليه طائر الصيد الجارح فأمسكه فاذا مع الحمام كتاب من غلام للراشدى الذى كان واليا على الرملة ثم على دمشق . وكان هذا الكتاب إلى أحد الدمشقيين ينبئه فيه أن ما عليه ثمانون ألف دينار فانصرف الاخشيد إلى داره وأحضر الرجل وطالبه بالمال وأخذه منه [١] .

* * *

وقد خلف لنا الجغرافيون المسلمون فى القرن الرابع الهجرى وصفا لمصر يصور لنا ما كانت عليه فى العصر الاخشيدى ، فان بعضهم زارها قبيل قيام هذا العصر ، كما زارها آخرون قبل سقوط الدولة الاخشيدية أو بعده بقليل .

ولسنا نريد أن نعود الى ما كتبه المسعودى ، فقد مرت بنا مقتطفات كثيرة مما دونه عن هذه البلاد . أما الاصطخرى — وقد عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى — فقد أفرد فصلا طويلا عن ديار مصر فى كتابه المسالك والممالك . ثم لقى جغرافيا آخر من معاصريه : هو ابن حوقل ، وطلب اليه أن يراجع كتابه المسالك والممالك ففعل ولكنه ما لبث أن أخرج كتابا بنفس الاسم اعتمد فيه على ما كتبه الاصطخرى فى كتابه .

وقد طاف ابن حوقل فى العالم الاســـلامى من شرقيه الى غربيه وكتب عن مصر حين زارها بعد سقوط الدولة الاخشيدية بتسع سنوات [٢] . وطبيعى اننا نستطيع أن نستنبط من وصفه ما كانت عليه مصر من العمارة فى العصر الاخشيدى . ومما كتبه ابن حوقل عن مدينة الفسطاط أنها « مدينة حسنة ينقسم النيل عندها قسمين فيعدى من أحدهما الى الآخر فعدوة أولى فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة يعبر اليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويعبر من هذه الجزيرة على جسر فيه آخر الى القسم الثانى الى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة . والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ومتاجر نخام . . . وبساتين

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٠

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٧ — ١٠٨

نضرة والدار يكون بها طبقات ست وسبع وخمس طبقات وربما سكن فى الدار المائتان من الناس »[١] .

كما تحدث ابن حوقل عن مدينة الاسكندرية وكثرة عمائرها ومافيها من الرخام والمرمر والأعمدة وعن فنارها المشهور[٢] . وتحدث عن تنيس ودمياط وما كانتا تنتجانه من المنسوجات الثمينة « التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتى دينار اذا كان فيه ذهب . وما لا ذهب فيه يبلغ المائة دينار »[٣] . وتحدث كذلك عن شطا ودبيق ودميرة وتونة وغيرها من مراكز صناعة النسيج فى مصر، وعن الاشمونين واسوان والبلينا والفيوم وغيرها من مراكز العمران فى البلاد .

* * *

وقد وصل الينا بعض وثائق من العصر الاخشيدى تكشف عن بعض نواحى المعاملات فى المجتمع . ومن هذه الوثائق عقد بيع جزء من منزل محفوظ فى دار الكتب المصرية ومكتوب على ورق أبيض ومؤرخ من سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) (انظر شكل ج). وهذا نص هذا العقد كما قرأه واكمل بعض كلماته الناقصة الأستاذ جرومان :

« هذا ما اشترى يحنس بن شنودة بن بطاقس من موسى بن سكريس وسمويل بن شنوده بن قفرى من سكان ططون[٤] من كورة الفيوم اشترى منهما حصتهما من المنزل المشاع بينهما وبين سرماده بن يحنس بن قزمان وهو اثنا عشر سهما من أربعة وعشرين سهما بحده وحدوده وسفله وعلوه وداخل فيه وخارج منه حده القبلى منزل قفرى القمبشاوى وحده البحرى طريق المارة وحده الشرقى منزل حرميده بن سسنه وحده الغربى عرصة لورثة بنى ابشاية . اشترى ذلك منهما بهذه ثلاثة الدنانير وثلث عينا ذهبا وازن بالجديد . قد قبض موسى بن سكريس وسمويل بن شنوده الثلاثة الدنانير وثلث

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٩٦
(٢) المرجع نفسه ص ٩٩
(٣) المرجع نفسه ص ١٠١ — ١٠٢
(٤) هى مدينة ططون الخالية من أعمال مركز اطسا . انظر أيضا أبو عثمان النابلسى الصفدى : تاريخ الفيوم وبلاده ص ٨٦

وثلث وسلم ذلك الى يحنس بن شنوده بطاقس وقبضه وحازه وملكه وصار ذلك مال من ماله وملك من ملكه إن شاع باع وإن شا بنا وإن شا سكن ، ليس لموسى بن سكريس وصمويل بن شنودة فى هذا المنزل بعد هذا الكتاب دعوى ولا طلبة بوجه من الوجوه ولاسبب من الأسباب ، باعوا ذلك على شرط بيع الاسلام وعهدته فما كان من علقة

شكل (ج) وثيقة بردية من سنة ٣٤١ هـ محفوظة بدار الكتب المصرية
[عن جرومان]

أو تباعة أوطارى بدين فانفاذ ذلك وخلاصه على موسى بن سكريس وصمويل بن شنوده بالغ ما بلغ من خالص ما لهما . شهد على اقرار موسى بن سكريس وصمويل بن شنوده بجميع ما فى هذا الكتاب بعد أن قرئ عليهما وعرفوه وأقروا بفهمه فى صحة عقلهما وبدنهما وجواز أمورهما طايعين غير مكرهين ولا مجبرين طالبين راغبين . وذلك فى جمادى الآخر من سنة احدى واربعين وثلثماية .

شهد محمد بن احمد بن على بن رحمة على اقرارهما بما فيه وكتب بخطه .

شهد عبد الرحمن بن هدى البقار على جميع ما فيه .

شهد ابراهيم بن احمد على اقرار موسى بن سكريس بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب بخطه .

شهد خيار بن اسماعيل بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب شهادته بخطه .

(شهد . . . . .) جبريل بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب عنه خيار بن اسماعيل بأمره ومحضره .

(شهد . . . . .) بن يوسف على جميع ما فى هذا الكتاب وكتب شهادته بخطه »[١] .

وفى دار الكتب المصرية وثيقة أخرى من سنة ٣٤١ هـ أيضا[٢] . وتتضمن عقد بيع بين يحنس بن شنودة بطاقس وعبد العزيز بن مقبل ، ولا تختلف عباراته كثيرا عن عبارات العقد الذى نقلناه هنا . ويبدو أن السمسرة كانت أمرا مقررا ومعترفا به وإن كنا لا نجد الإشارة اليها صراحة فى الوثائق التى نعرفها من العصر الاخشيدى . ولكنا نجدها فى العصر الفاطمى فى عقد بيع منزل من سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) محفوظ فى دار الكتب المصرية وفيه نص على أن على المشترية السمسرة المقررة[٣] . والظاهر أنها أبطلت فى عصر الناصر محمد بن قلاوون[٤] .

وقد وصلت الينا وثيقة أخرى على ورق وهى محفوظة الآن بمجموعة الأرشيدوق رينر فى ڤينا وتتضمن وصلا باستلام إيجار طاحونة قدره دينار ، تسلمه يوحنا بن فكتور من أبى بكر فى مدينة أشمون سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م)[٥] .

---

(١) راجع تعليقات الأستاذ جرومان فى A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. I. pp. 174-179 .

(٢) المرجع نفسه ج ١ ص ١٨٠ — ١٨٥

(٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٥٨

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٩

(٥) Papyrus Erzherzog Rainer: Führer durch die Ausstellung : p. 256 No. 1040

وفى دار الكتب المصرية وثيقة على ورق رجع إلى سنة ٣٤٨ هـ وتتضمن تسجيل هبة من يحنس بن شنودة بن بطرس بطاقس لصبية رباها . وهبها ثلث ما يملك « من دينار

شكل (د) وثيقة بردية من سنة ٣٤٨ هـ محفوظة بدار الكتب المصرية
[عن جرومان]

أو درهم أو ثوب أو نحاس أو منزل أو عرصة أو شيء مما يساوى درهم واحد صدق ذلك عليها صدقة لوجه الله لا يريد بذلك جـدى ولا شكورا »[1] (أنظر شكل د) .

(1) A. Grohmann : op. cit. II, p. 157-160

ولكنا لا نتفق مع الأستاذ جرومان فى فهم السطور الخامس والسادس والسابع من هذه الوثيقة ؛ لأننا نذهب إلى أن يحنس تصدق على هذه الصبية بثلث ما يملك ، ولا نوافق على ماظنه من أنه تصدق بهذه الجارية على صبية ثانية وان تلك الجارية تساوى ثلث ما يملك .

(٥)

الزراعة

كانت الزراعة المصدر الأساسى لثروة مصر فى العصر الاخشيدى ، كما كانت فى العصور القديمة وفى سائر العصور الإسلامية وكما لاتزال حتى الآن . وكان الفلاحون يزرعون القمح [١] ويعنون بزراعة الكتان ويصدرونه كما يصدرون المنسوجات المصنوعة منه إلى الخارج . وقد أشير إلى زراعته فى كثير من الوثائق البردية [٢] ، كما ذكرته المراجع التاريخية الإسلامية [٣] . وعلى الرغم من أن القطن كان يزرع فى مصر فى العصور القديمة وفى العصور الوسطى [٤] فاننا لانجد له ذكرا فى النصوص التاريخية التى نعرفها من العصر الاخشيدى . وكان الفول يزرع بكثرة وقد جاء ذكره فى الوثائق البردية وفى المراجع التاريخية [٥] ، وكذلك القثاء [٦] . أما قصب السكر فان الوثائق البردية تشهد بزراعته فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى [٧] ، ولكن الظاهر أن زراعته لم تنتشر بمصر تماما إلا منذ العصر الفاطمي [٨] . ومن حاصلات مصر

---

(١) A. Grohmann : op. cit. II, p. 48-49

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٤٦

(٣) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين (انظر الفهرس ص ٤٤٧ — ٤٤٨) والسيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥١

(٤) ابن مماتى : المرجع السابق (الفهرس ص ٤٤٧) ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٩٦

(٥) جرومان : المرجع السابق ج٢ ص١٠٢ ، وابن مماتى : المرجع السابق (الفهرس ص ٤٤٧)

(٦) ابن مماتى : المرجع نفسه (الفهرس ص ٤٤٧) ، وجرومان : المرجع نفسه ج ٢ ص١٧٢

(٧) Papyrus Erzherzog Rainer : Führer durch die Ausstellung p. 183 No. 705
وانظر السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٦

(٨) ابن مماتى : المرجع السابق (الفهرس ص ٤٤٧) ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦١

فى العصر الاخشيدى القلقاس [١] والأُتْرُج المدور [٢] والزيتون [٣]. ولا محل هنا لذكر سائر الحاصلات التى يرد ذكرها فى الوثائق البردية ولا فى النصوص التاريخية المكتوبة فى القرن الرابع الهجرى [٤]؛ فهى معروفة ولا تزال من حاصلات البلاد إلى اليوم.

وقد وصلت الينا وثائق تكشف عن بعض نواحى الزراعة فى العصر الاخشيدى. ومنها وثيقة على ورق ترجع إلى سنة ٣٥٦ هـ وهى محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا [٥]. وتتضمن بالعربية واليونانية وصلا لمزارع اسمه على بالخراج الذى دفعه لحساب المالك أبى على، وهو الخراج المستحق على الأرض التى كان يفلحها بالمزارعة [٦]. ويبدو من الوثائق البردية أن المستأجر كان يأخذ على عاتقه عمارة الأرض [٧] أى إصلاح جسورها ومد ترعها وحفر خلجها [٨]. وتشير بعض الوثائق البردية الأخرى إلى المتقبلين وهم الذين كان يرسى عليهم ضمان الخراج على صفقات الأرض حين ينادى عليها فى المسجد الجامع. وكان التقبل لأربع سنوات

---

(١) متز: الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥٤ — ٢٥٥، وما ذكره من المراجع القديمة.

(٢) جلب إليها من الهند فى القرن الرابع الهجرى. انظر المسعودى: مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٨، والمقريزى: الخطط ج ١ ص ٢٨، ومتز: الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥٦ — ٢٥٧

(٣) متز: الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦٠ وما يذكره من المراجع القديمة.

(٤) راجع ابن مماتى: كتاب قوانين الدواوين (الفهرس ص ٤٤٢ وما بعدها).

(٥) Papyrus Erzherzog Rainer; Führer durch die Ausstellung p. 257 No. 1061

(٦) إذا أجر المالك جزءاً من أرضه واتفق مع المستأجر على أن يؤدى الايجار من المحصول عرف ذلك باسم المزارعة. وفى القاموس زارع فلانا أى عامله على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها. وتدل الوثائق البردية على أن الجزء الذى كان يأخذه المالك من المحصول كان النصف فى بعض الأحيان وكان فى أحيان أخرى الثلث أو الربع. وكان ينص فى عقد المزارعة على الطرف الذى يدفع الخراج أو يقوم بغير ذلك من النفقات. انظر ص ١٨١ من المرجع المذكور فى الحاشية السابقة. وانظر الشروط المختلفة فى إيجار الأرض بمصر فى فجر الاسلام كما تبدو من الوثائق البردية فى Grohmann: Arabic Papyri in the Egyptian Library II. p. 34.

(٧) A. Grohmann: op. cit. II. p. 60

(٨) المقريزى: الخطط ج ١ ص ٨٢

حتى تتعادل سنو المحصول الضعيف بسني المحصول الطيب [١] . وقد وصلت الينا وثيقة من الورق محفوظة فى دار الكتب المصرية وترجع إلى سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) وتتضمن عقد إيجار فدادين ثلاثة بثلاثة دنانير [٢] . (أنظر شكل هـ) .

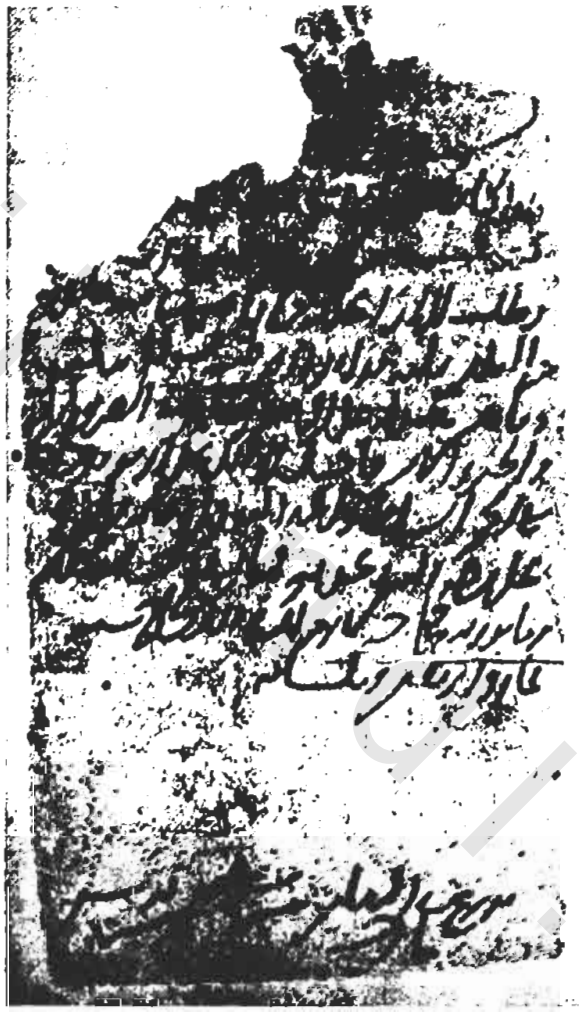

شكل (هـ) وثيقة بردية من سنة ٣٤٨ هـ محفوظة بدار الكتب المصرية
[عن جرومان]

وكان المصريون يستخدمون النيلة للتلوين باللون الأزرق . وكان شجر النيلة يزرع فى الصعيد وفى الواحات . وكان يحصد فى كل مائة يوم ويبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين

---

(١) Grohmann : op. cit. 11. p. 39-40

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٥٢

وفى السنة الأولى يسقى فى كل عشرة أيام دفعتين ، وفى السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفى الثالثة أربع دفعات [١] .

وطبيعى أن الرى فى مصر حينئذ كان بطريق الحياض . وقد كتب ابن حوقل فى هذا الصدد : « وزروعهم بماء النيل تمتد فتعم المزارع من حد اسوان إلى حد الاسكندرية ويقيم الماء فى أرضهم بالريف والحوف منذ امتداد الحر إلى الخريف ثم ينضب فيزرع ثم لا يسقى بعد ذلك ولا يحتاج إلى سقى البتة » [٢] .

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٧٢

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٩٧

obeikandl.com

(٦)

الصناعة والتجارة

كانت أهم الصناعات بمصر فى العصر الاخشيدى صناعة النسج وقد أشرنا إليها عند الكلام على صاحب الطراز، وسوف نعود اليها فى الفصل الذى نعقده للكلام على الفنون والآثار، لأن هذه الصناعة بلغت من الرقى درجة جعلتها من ميادين الفن التطبيقى .

ومن الصناعات التى عرفتها مصر فى ذلك العصر صناعة الحصر [١] . وكان يصنع منها أنواع فاخرة تقليدا للحصر المصنوعة فى عبادان [٢] .

وشهد العصر الاخشيدى تدهور صناعة القراطيس من البردى . وأصبح الورق يرد إلى ديار الاسلام من الصين كما يصنع فى سمرقند ودمشق وطبرية وطرابلس الشام [٣] .

ويبدو أن المصريين فى القرن الرابع الهجرى تعلموا من الزنوج صناعة بعض أنواع الجلود [٤] .

وكان لمصر شأن عظيم فى التجارة فى العصر الاخشيدى ، ولا عجب فقد كانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب مختلف البحار والبلاد فى القرن الرابع الهجرى . ولكن المصريين كانوا لا ينزحون عن مصر للتجارة إلا فى الندرة [٥] . وكان فى مصر جالية كبيرة من الفرس يحترفون التجارة . كما كان لليهود نشاط ملحوظ فى هذا الميدان [٦] . وبلغت ثروة بعض التجار فى مصر فى بداية العصر الاخشيدى درجة عظيمة ، حتى ان أحدهم

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٧

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧ حيث يجب أن نقرأ العبادان بدلا من العبادات ، وانظر أيضا متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٥

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٨ و ٣٠٩ ، وما ذكر فيه من المصادر القديمة .

(٤) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٧٩ ، وما ذكر فيه من المصادر القديمة .

(٥) الثعالبى : لطائف المعارف ص ١٠١

(٦) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ وما ذكر فيه من المراجع القديمة .

— وهو عفان بن سليمان البزاز — حين توفى استطاع الاخشيد أن يأخذ من ماله نحو مائة الف دينار [١] .

وكانت الملاحة النهرية على النيل كثيرة جداً فى القرن الرابع الهجرى حتى تعجب المقدسى وهو بمصر من كثرة المراكب السائرة والراسية هناك [٢] . ولم تكن التجارة مع بلاد النوبة بأيدى المصريين وانما كان تجار النوبة هم الذين يأتون فى النيل حتى منطقة الجنادل ثم ينقلون بضائعهم على ظهور الجمال إلى أسوان .

وكانت مصر تستورد الحيوانات للذبح من برقة [٣] . وكانت المدن المصرية غنية بأسواقها كما تبين من كثرة المدن التى أشار ابن حوقل إلى ما فيها من أسواق عامرة [٤] .

وكان الذهب يستخرج من الصحراء الشرقية بين أسوان وعيذاب وكان وادى علاقى مركز الذين يبحثون عن هذا المعدن النفيس وكان لسكان هذا الوادى عبيد من الزنوج يعملون فى استخراج التبر [٥] . وفى سنة ٣٣٢ هـ كان سيد قبيلة ربيعة صاحب السلطان فى هذه المنطقة [٦] . كما كان معدن الزمرد يستخرج على مقربة من المنطقة نفسها [٧] ومن مدينة قفط [٨] .

وكان بين المصريين فى العصر الاخشيدى ملاحون مهرة فى المدن الساحلية وفى بحيرة تنيس . وقد أعجب ابن حوقل — مع كثرة ما شاهده فى أسفاره الطويلة — بمهارة الملاحين الذين رآهم فى تنيس فكتب أن « هذه البحيرة قليلة العمق يسار فى أكثرها

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٧ ، أنظر أيضاً الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٤٣
(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٨
(٣) البكرى : المغرب (طبعة دى سلين) ص ٥
(٤) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٩ وما بعدها .
(٥) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣٤ وما بعدها .
(٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧
(٧) المرجع نفسه ج ١ ص ١٩٧
(٨) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣

بالمدارى وتلتقى السفينتان تحك احداها الأخرى هذه مصعدة وهذه نازلة بريح واحدة مملأة شرعها بالريح ومتساوية فى سرعة السير »[١] .

وكانت الملاحة فى البحر الأحمر صعبة لما فيه من شعاب بارزة ورياح معاكسة . ولهذا كانت الملاحة فيه بالنهار فقط ، فاذا جن الليل أرست المراكب فى مواضع معروفة[٢] . واحتفظ نهر النيل الذى يسير موازيا هذا البحر بأهميته الكبيرة بوصفه طريقاً من طرق الملاحة النهرية . وكانت عيذاب الثغر الذى تلتقى عنده تجارة البحر بتجارة النهر ، فكانت البضائع تصل اليه من قوص وأسوان ثم يعبر التجار منه إلى جدة ، كما كانت ترد اليه فى البحر الأحمر من الحبشة واليمن وزنجبار ثم تحمل على الابل فى الصحراء مسيرة عشرين يوما إلى أسوان أو قوص[٣] .

---

(١) ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك ص ١٠٣

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٦

(٣) مز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ وما ذكر فيه من المراجع القديمة .

obeikandl.com

الباب الثامن

الآثار والفنون

obeikandl.com

obeikandl.com

الآثار والفنون

كان العصر الاخشيدي — على قصره — عصر ازدهار فى تشييد العمائر وإنتاج التحف والآثار الفنية التى تمثل شتى ميادين الفن الإسلامى . ولـكن الذى وصل الينا من آثاره قليل بسبب تقادم العهد بها من ناحية وبسبب مجىء العصر الفاطمى بعدها من ناحية أخرى . والعصر الفاطمى — كما نعرف — بلغت فيه الفنون الإسلامية فى مصر أوج عظمتها وطغت آثاره على ما كان فى مصر قبلها من الآثار الإسلامية [1] .

ومهما يكن من الأمر فقد وصل الينا من العمائر الاخشيدية أثران : هما مشهد أولاد طباطبا ومحراب قديم غربى مشهد يحيى الشبيه .

مشهد آل طباطبا

أما مشهد آل طباطبا فيرجع إلى سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٣ م) . ويقـع على بعد خمسمائة متر غربى ضريح الإمام الشافعى ونحو مائتين وثلاثين مترا شمالى حمامات عين الصيرة بالقاهرة . ويتألف من مساحة من الأرض شكلها غير منتظم وطولهـا نحو ثلاثين مترا وعرضها نحو عشرين مترا وفى طرفها الجنوبى قبتان ويحيط بهـا جدار وتضم عددا من القبور (أنظر اللوحة رقم ٢) . ولـكن كثيرا من المبانى القائمة فى هذا المشهد حديثة العهد . فلا يكاد يعنينا منها إلا بقايا دعائم صليبية الشكل ومبنية من الطوب القديم وترجع إلى عهد تشييده . ويدل وضعها على أنها كانت تقسم المشهد كله إلى تسعة أجزاء مربعة الشكل وكانت تحمل اثنى عشر عقدا .

---

(١) أنظر زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين .

وقد قام الأستاذ كريزويل بدراسة هذه البقايا المعمارية دراسة دقيقة [١] . وقامت إدارة حفظ الآثار العربية بإزالة الأتربة التى كانت تخفى المعالم القديمة ، فاستطاع الأستاذ كريزويل أن يثبت أن هذا المشهد لم تكن له جدران خارجية بل كان شبه مظلة محمولة على دعائم من الطوب وتضم تسعة أروقة عليها تسع قباب (أنظر اللوحتين رقم ٣ و ٤) .

وقد خلف لنا ابن الزيات وصف هذا المشهد كما كان فى بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) فتحدث عن مشهد القاضى بكار [٢] ثم عن مشهد طباطبا [٣] ثم عن عين الصيرة [٤] . وهذا هو ترتيب المشهد الذى نحن بصدده . فهو على بعد خمسة وسبعين مترا جنوبى قبر القاضى بكار ومائتين وثلاثين مترا شمالى عين الصيرة . وذكر ابن الزيات أن الذين دفنوا فى مشهد طباطبا هم على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا المتوفى سنة ٢٥٥ هـ [٥] وأحمد بن على بن الحسن بن طباطبا [٦] وعبد الله بن أحمد بن على بن الحسن ابن ابراهيم طباطبا المتوفى سنة ٣٤٨ هـ [٧] وخديجة ابنة محمد بن اسماعيل بن القاسم الرسى ابن ابراهيم طباطبا المتوفاة سنة ٣٢٠ هـ [٨] وأبو الحسن على بن الحسن بن على بن محمد ابن أحمد بن على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا [٩] وأبو محمد الحسن بن على بن محمد بن أحمد

(١) ستظهر هذه الدراسة المفصلة فى الجزء الثالث من كتاب الأستاذ كريزويل عن العمارة الاسلامية وهو الذى تقوم بطبعه الآن مطبعة جامعة اكسفورد وقد تفضل المؤلف فأطلعنا على هذه الدراسة وله منا وافر الشكر والتقدير .

(٢) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٤٨

(٣) المرجع نفسه ص ٥٩

(٤) المرجع نفسه ص ٦٤

(٥) المرجع نفسه ص ٥٩ — ٦٠

(٦) المرجع نفسه ص ٦٠

(٧) المرجع نفسه ص ٦٠ — ٦١ ، أنظر سيرته فى ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٦

(٨) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦١

(٩) المرجع نفسه ص ٦٢

ابن على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا المتوفى سنة ٣٥٤ هـ ومعه والدته وابنه [١] ونفيسة ابنة على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا [٢] ثم الشريف طباطبا الأصغر أخو عبد الله بن أحمد وقد توفى سنة ٣٣٤ هـ [٣] وأمينة ابنة الحسن بن محمد بن أحمد بن على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا [٤] والحسين بن محمد بن محمد بن أحمد بن على بن الحسين بن ابراهيم طباطبا ووالده [٥] ونفيسة ابنة على الأزرق [٦] . وهكذا يتبين أن الذين دفنوا فى هذا المشهد أفراد من بين الجيلين الثالث والتاسع من أسرة ابراهيم طباطبا الذى قدم إلى بغداد فى خلافة هارون الرشيد [٧] .

ومهما يكن من الأمر فان الأستاذ كريزويل يذهب إلى أن تاريخ تشييد هذا المشهد يقع حول سنة ٣٣٤ هـ أى سنة وفاة الشريف طباطبا الأصغر ، وذلك بالنظر إلى أن طرازه المعمارى فريد فى نوعه وأن الأثرين اللذين يشبهانه بعض الشبه يرجع أحدهما إلى القرن الخامس الهجرى ويرجع الثانى إلى نهاية القرن الرابع أو إلى القرن الخامس .

محراب قديم [٨]

على مقربة من ضريح الأمام الشافعى تربة تعرف باسم تربة يحيى الشبيه . والى غربيها فى حذاء جدارها الخلفى آثار محراب صغير من الجص ، لا يظهر منه إلا الجزء العلوى أما باقيه فمدفون فى الأرض . ولكنه لم يكن كذلك منذ نحو خمسين عاما حين رآه

(١) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦٢
(٢) المرجع نفسه ص ٦٣
(٣) المرجع نفسه ص ٦٣
(٤) المرجع نفسه ص ٦٣
(٥) المرجع نفسه ص ٦٣
(٦) المرجع نفسه ص ٦٣
(٧) أنظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٥٠ وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨

(٨) Julius Franz: Kairo p. 134. , S. Flury: Ein Stuckmihrab des IV (X.) Jahrhunderts (in Jahrbuch der Asiatischen Kunst, II, 1925) pp. 106-110, J. Strzygowski: Asiens bildende Kunst p. 505.

فراز باشا مهندس الأوقاف وفطن الى أهميته الأثرية وخشى أن تتفتت أجزاءه وتضيع معالمه فعمل على أن تؤخذ له صورة أو نموذج من الجص أودعت دار الآثار العربية بالقاهرة منذ سنة ١٩٠٣ [١] (أنظر اللوحة رقم ٥) .

وباطن هذا المحراب الجصى على هيئة المحار . والراجح أن هذا الباطن قد أضيف الى المحراب الأصلى ، لأن طرازه لم يظهر قبل سنة ٥١٦ هـ [٢] ولا يمكن أن يكون معاصرا لطراز الكتابة الكوفية أو الزخارف النباتية فى اطار العقد وتوشيحته . وهى زخارف كلها أقرب الى الطراز العباسى الطولونى منها الى أى طراز آخر (أنظر اللوحة رقم ٦) . وقد درسها الأستاذ فلورى دراسة دقيقة ورجح أنها ترجع الى العصر الاخشيدى . ولا يتسع المجال هنا للاسترسال فى وصف الزخارف المذكورة وشرح مميزاتها مما يعنى به الاختصاصيون فى تاريخ الفنون الاسلامية .

* * *

ولكن ازدهار فن العمارة فى العصر الاخشيدى تشهد به البيانات التى نقرأها فى النصوص التاريخية عن القصور وشتى العمائر التى شيدت فى هذا العصر ثم عفت آثارها فلم يصل الينا شىء منها .

وأهم هذه المنشآت قصر المختار والبستان الذى شيده الاخشيد فى جزيرة الروضة سنة ٣٢٥ . وقد روى ابن زولاق قصة إنشاء هذا البستان فقال: ان الاخشيد قال لصالح بن نافع أنه أراد منذ تمت له إمارة مصر أن ينقل دار الصناعة من جزيرة الروضة وأن يجعل موضعها بستانا يسميه المختار ، ثم أمره أن يخرج الى الجزيرة ليعد مشروع هذا البستان مع دار كبيرة تقام فيه وان يقدر ما يلزم لذلك من النفقات ، فخرج صالح بن نافع مع بعض من لهم دراية بمثل هذه الأمور وخطوا تصميم البستان والقصر وألحقوا

(١) Comité de Conservation des Monuments de l'Art Arabe, Exercice 1904 p. 38
ومكس هرتس بك (ترجمة على بك بهجت) : فهرس مقتنيات دار الآثار العربية ص ٢٦٣

(٢) Flury : op. cit. p. 106

بهما دارا للحرس ودارا للغلمان وخزائن للطعام والملابس والفرش وما الى ذلك ، وعرضوا هذا التصميم فى رقعة كبيرة من الورق على الاخشيد فأعجب به وسأل عن نفقاته فقيل له : ثلاثون ألف دينار ، فاعترض الاخشيد على إنفاق هذا المال الكثير وقال إنه يريد الاقتصاد فى نفقات هذا المشروع ، وما زال بهم حتى انخفض رقم المال اللازم الى خمسة آلاف دينار . ومع ذلك فان الاخشيد — على عادته فى الحرص على المال — أصر على أن تجمع هذه النفقات من تبرع رجال حاشيته ومن اليهم من القادرين على الدفع ، فأخذ صالح بن نافع ورقة وبدأ قائمة التبرعات بأن سجل على نفسه التبرع بثلاثمائة دينار ، وتبعه غيره حتى جمع لهذا المشروع ستة آلاف دينار . وأشرف على تنفيذه المهندسان زقازق وابن ابى الرداد . وكان الاخشيد بعد ذلك يفاخر أهل العراق بهذا المتنزه [١] .

ويبدو أن الاخشيد كان شديد العناية بتجميل حاضرة ولايته ، فقد ذكرت المراجع التاريخية أنه أنشأ بستانا آخر شمالى الفسطاط عرف بعد ذلك باسم البستان الكافورى [٢] وأنه عنى به وجعل له أبوابا من حديد وأنه كان ينزل به ويقيم فيه أياما كاملة . وعنى به من بعده ابناه أبو القاسم انوجور وأبو الحسن على فى أيام إمارتهما . وكان كافور كثيرا ما يتنزه به ويواصل الركوب الى الميدان الذى كان فيه ، وكانت خيوله بهذا الميدان . ولما قدم جوهر القائد الى مصر على رأس جيوش الفاطميين نزل بجوار هذا البستان وأصبح البستان جزءا من القاهرة واتخذه الخلفاء الفاطميون متنزها لهم [٣] .

وكتب على مبارك باشا أن جوهرا القائد لما قدم بجيشه الى ساحل الفسطاط فى شعبان من سنة ٣٥٧ « نزل بحرى الفسطاط التى فيها اليوم الجامع الأزهر وبيت القاضى وخان الخليلى وبين القصرين وما جاورها من الأماكن التى بين الجبل والخليج .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٣ — ١٤

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٥

(٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٤٥٧

وكانت هذه البقعة رمالا فيما بين مصر الفسطاط وعين شمس التى تسمى الآن بالمطرية ، يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط الى عين شمس فيما بين الخليج المعروف فى أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه والخليج المعروف باليحاميم لمروره بجانبهما ، اذ اليحاميم اسم للجبل الأحمر الكائن بشرقى العباسية . وكان ذلك الخليج يمر بقربها ، وقد زال من مدة ولم يبق له أثر . وعند نزول جوهر بهذه الرملة لم يكن بها بنيان غير البساتين وأماكن قليلة منها بستان الاخشيد محمد بن طغج المعروف بالكافورى . وكان هذا البستان فى شرقى الخليج ، محله اليوم فيما بين جامع الشعرانى والسكة الجديدة قريبا من قنطرة الموسكى ممتدا فى الجهة الشرقية الى النحاسين . وكانت مساحته تبلغ ستة وثلاثين فدانا بمقياسنا اليوم ، وبجانبه من الجهة القبلية ميدان الاخشيد ومحله الآن من بر الخليج الشرقى الى شارع السكرية والغورية »[١] .

* * *

وكانت عناية الأمراء الاخشيديين بالمساجد عظيمة فكانوا يطلقون لها النفقات ويأمرون بعمارتها ومدها بما يلزم من الحصر والمصابيح وما إلى ذلك . وقد وصلت الينا أسماء عدد من المساجد المعروفة فى هذا العصر إلى جانب المسجد العتيق أو المسجد الجامع أو جامع عمرو ، فحفظت لنا النصوص التاريخية أسماء مسجد الربح[٢] ومسجد عبد الله[٣] ومسجد الزمام[٤] ومسجد ابن عمروس[٥] ومسجد الاقدام ومسجد موسى[٦] .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٤
(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٢
(٣) المرجع نفسه ص ٣٦
(٤) المرجع نفسه ص ٤١
(٥) المرجع نفسه ص ٤١
(٦) المرجع نفسه ص ٥٦

وأمر أبو الحسن على بن الاخشيد ببناء مسجد فى الجيزة ، ويبدو أن الفضل فى بناء هذا المسجد كان لـكافور لأن أهل الجيزة علموا أن الفضاء الذى شيد فيه هذا المسجد كان يراد أن تقام فيه حوانيت وغير ذلك من عمائر الاستغلال ولـكنهم كانوا يريدون فيه مسجدا فخاطبوا كافورا فى الأمر وتم لهم بناء المسجد[١] .

ومن المساجد التى شيدت فى العصر الأخشيدى مسجد الفقاعى فى سفح جبل المقطم وقد بناه كافور الاخشيدى[٢] . ومنها مسجد موسى فى المنطقة نفسها وقد بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات[٣] .

وتذكر المراجع التاريخية أن كافورا شيد بعض القصور الجميلة فى مصر مثل دار الفيل التى سميت بهذا الاسم لأنها كانت تضم عددا من الفيلة . وقد سكنها كافور من سنة ٣٤٦ إلى أن توفى سنة ٣٥٧[٤] .

ومن العمائر الاخشيدية جوسق كبير شيده فى القرافة الوزير أبو بكر محمد بن على الماذرائى على هيئة الـكعبة . وكان الناس يجتمعون عند هذا الجوسق فى الأعياد ويوقد كله فى ليلة النصف من شعبان ويجتمع القراء حوله لقراءة القرآن[٥] .

ومما ينسب الى الماذرائى أيضا دار تسمى دار تبر . وقد وقفها هذا الوزير على ولده وبعد انقراض عقبه على الفقراء والمساكين بمدينة الرسول[٦] . وتنسب الى الوزير ابى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات دار تعرف بدار حنزابة[٧] .

---

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٢٧

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥٦

(٣) المرجع نفسه ج ٢ ص ٤٥٦ ، وابن الزيات : الـكواكب السيارة ص ١٤

(٤) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٢٥ ، أنظر أيضاً المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥٣

(٦) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٩

(٧) المرجع نفسه ج ٤ ص ١٠

وأنشأ الاخشيد سنة ٣٣٠ قيسارية [١] لبيع المنسوجات فى سوق كان يعرف باسم سوق الحمام [٢] . ويبدو أنه أنشأ قيساريات أخرى وحوانيت ودورا كان يحبس دخلها على المستشفى الذى شيده [٣] .

ومن العمائر الاخشيدية التى تنسب الى الاخشيد مستشفى أو مارستان كان يعرف باسم المارستان الأسفل تميزا له عن المارستان الطولونى [٤] . كما ينسب الى كافور مارستان شيده هذا الأمير سنة ٣٤٦ هـ . والراجح عندنا أنه هو المارستان الأسفل المنسوب الى الاخشيد ، لأن المقريزى لم يذكر بين المارستانات أى مارستان شيده الاخشيد نفسه ، فضلا عن أن اشارة ابن دقماق الى الاخشيد فى نسبة المارستان الأول ليست صريحة تماما ، فقد يكون المقصود اونوجور الاخشيد الذى كان أمير البلاد حين شيد كافور المارستان .

ومن المنشآت الرئيسية التى شيدت فى العصر الاخشيدى « سبع سقايات » شيدها الوزير جعفر بن الفرات لسكان الفسطاط حين أصبحوا يحتاجون فى موسم الجفاف الى جلب الماء من منطقة جزيرة الروضة بسبب جفاف الخلجان وانحسار مياه النيل الى تلك المنطقة [٥] . وقد حفر هذا الوزير بئرا لينقل منها الماء الى سبع السقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين التى كانت بخط الحمراء وكتب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لله الأمر من قبل ومن بعد وله الشكر وله الحمد ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها الى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وحبسه وسبله وقفا مؤبدا لا يحل تغييره ولا العدول بشىء من مائه ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا الى حيث مجراه الى السقايات المسبلة فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم » .

(١) القيسارية بمعنى السوق . انظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes II, p. 432

(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٢

(٣) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٩٩

(٤) المرجع نفسه ج ٤ ص ٩٩

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٤٤

وقد حفظ لنا المقريزى نص هذه الكتابة التاريخية حين تحدث عن بئر الوطاويط [١].

ومن الطريف إنها وجدت على لوحة كبيرة من الحجر فى حى الصليبة عند مدخل الشارع الصغير الذي يصل شارع الصليبة بجامع ابن طولون والذى كان يعرف باسم عطفة بير الوطاويط . ولكن هذه اللوحة كسرت وضاعت بعض أجزائها فلم يبق منها إلا نحو ثلاثة سطور قرأها فان برشم وڤيت [٢].

وهذه الكتابة وثيقة عظيمة الشأن ، لأنها تشهد بأن المقريزى جدير بالثقة فيما يكتبه وبأنه يحرص على الدقة فيما يسجله عن الآثار ، ولأنها أقدم «وقفية» وصلت الينا فى تاريخ مصر الاسلامية . ومهما يكن من الأمر فان هذه البئر لم تكن تعرف عند إنشائها باسم بئر الوطاويط . وقد ذكر المقريزى أن السقايات خربت بمرور الزمن وبنى فوق البئر وتولد فيها كثير من الوطاويط فعرفت ببئر الوطاويط .

* * *

ومن الآثار التى ترجع الى العصر الاخشيدى مجموعة من شواهد القبور محفوظة فى دار الآثار العربية بالقاهرة [٣] . وتشهد حروف الكتابة فى هذه الشواهد — سواء منها المحفور والبارز — بأن الزخارف الكتابية دخلت على الخط الكوفى قبل العصر الفاطمى [٤] ، فأصبحت هامات الحروف وذيولها تنتهى فى بعض الأحيان برسوم زخرفية تبشر بالزخارف الفنية التى طرأت على الخط الكوفى فى العصر الفاطمى حتى أصبح يعرف باسم الكوفى المزهر [٥].

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٣٥

(٢) Wiet : Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte 11. pp. 91-94

(٣) G. Wiet : Catalogue Géneral du Musée Arabe du Caire. Stèles Funéraires t. 5 pp. 24-151.

(٤) Ibid pl. 12, 13, 17, 24. 26. 36

(٥) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٢٣٨ و E. Kühnel : Islamische Schriftkunst p. 14

وفى اللوحات رقم ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ رسم أربعة من شواهد القبور فى العصر الاخشيدى ، ففى اللوحة رقم ٧ شاهد قبر من الحجر الجيرى عليه كتابة محفورة بالخط الكوفى البسيط ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم
قل هو الله أحد الله الصمد
لم يلد ولم يولد ولم يكن
كفوا (هكذا !) أحد اللهم صلى
على محمـــد النبى وعلى اله الطا
هرين وارحم ام الحسن ابنت
عمر بن احمد بن عيسى بن سابق
بن ابى تراب وارض عنها واغفر لهـا
وتجاوز عن سيئاتها والحقها بنبيهـا
محمدا (هكذا !) صلى الله عليه واله وسلم
توفيت يوم الأربعـاء لثمـان عشرة ليلة
خلت من جمـادى الأولى سنة اثنين
وثلاثين وثلثمائه وهى تؤمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله وما شرع من دينه وحجته »

وفى اللوحة رقم ٨ شاهد قبر من الرخام عليه كتابة محفورة بالخط الكوفى وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم
كل شىء هالك الا وجهه له
الحـكم واليـــه ترجعون هذا
قبر محمد بن وساس بن محمد
البزاز توفى رحمه الله يوم

الأربعاء لليلتين خلتا من ذى
الحجة سنة اثنتين وثلثين وثلثمائة
وفيه دفن ابنه عبد الله بن
محمد بن فساس توفى رضى الله
عنه يوم الاربعاء لخمس وعشرين
ليلة خلت من ذى القعدة سنة
ثلث وثلثين وثلثمائة »

وفى اللوحة رقم ٩ شاهد قبر من الحجر الجيرى وله إطار بارز وعليه كتابة محفورة بالخط الكوفى ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم
لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه
سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى ا
لارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه
يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
بشىء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات
والارض ولا يوده حفظهما وهو العلى
العظيم اللهم صلى على محمد وعلى اله الطا
هرين وارحم محمد بن يسين بن محسن بن محمد
بن محسن الجعفرى توفى يوم الثلثاء لسبع عشر
خلون من جمادى الأولى سنة خمس واربعين وثلثمائة »

وفى اللوحة رقم ١٠ شاهد قبر من الرخام عليه كتابة بارزة بالخط الكوفى تدل على أنه لحفيد ابن الجصاص التاجر الجوهرى الذى صحب خمارويه بن أحمد بن طولون

والذى سبق الكلام عليه . وقد توفى ابن الجصاص سنة ٣١٥ هـ ، وهذا نص الكتابة على شاهد حفيده :

« بسم الله الرحمن الرحيم
قل هو الله احد الله
الصمد لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفوا احد
هذا قبر عثمان المكنا
بابى عمرو بن عبيد الله
بن الحسين بن عبد الله
لجوهرى المعروف با
بن الجصاص توفى يوم الا
ربعاء ليلة (هكذا !)
بقيت من جماد
ى الأولى سنه خمس
وخمسين وثلثمائة
الحقه الله بنبيه محمد
صلى الله عليه وعلى اله اسلم (هكذا !)

* * *

وقد وصلت الينا بضع أوراق محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا ، ويظن أنها مما عثر عليه فى الفيوم . وعلى إحداها رسم فارس ذى لحية وقبعة مخروطية الشكل وفى إحدى يديه ترس وفى الآخر رمح . وفى الوجه الآخر العبارة الآتية : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت » ثم « الحمد لله شكرا . الحمد لله وحده مما صور أبو تميم حيدرا »[1] .

(1) A. Grohmann and Th. Arnold : The Islamic Book fig. 4
وتعليقات الدكتور زكى محمد حسن على كتاب التصوير عند العرب لاحمد تيمور باشا ص١٨٧ — ١٨٨

ويبدو فى رسوم هذه الأوراق التأثر بأساليب الفن القبطى وسيادة الألوان البدائية كالأحمر والأصفر والأخضر ، والراجح عند مؤرخى الفنون الاسلامية أنها ترجع إلى العصر الإخشيدى .

* * *

أما صناعة النسج فى عصر الإخشيديين فقد ازدهرت ازدهارا عظيما ، كما عرفنا عند عند الكلام على وظيفة صاحب الطراز . وكانت الحكومة تراقب صناعة النسج الأهلية مراقبة دقيقة وتختم الأقمشة بخاتم رسمى ولا تسمح بأن يتولى التجارة فيها إلا التجار الذين ترخص لهم بمزاولة هذا العمل . وكانت المراكز الرئيسية لهذه الصناعة هى المناطق التى يكثر فيها القبط . وكان القطن والكتان ينسجان فى كثير من مراكز صناعة النسج ولا سيما بالدلتا فى تنيس وشطا ودبيق ودمياط فضلا عن الفرما والاسكندرية ، كما كانا ينسجان فى البهنسا والاشمونين واخميم وأسيوط من مدن الصعيد .

وقد كتب ابن حوقل عن تنيس ودمياط وذكر ما بهما من « الحلل السنية التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة . وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتى دينار إذا كان فيه ذهب ، وما لا ذهب فيه يبلغ المائة دينار »[1] كما أشار إلى ما كان يصنع فى البهنسا من « الستور والبسط والمضارب والفساطيط » وذكر أن الزوج من بعض هذه الستور كان يساوى نحو ثلاثمائة دينار[2] .

وكانت المنسوجات المصرية فى العصر الاخشيدى لاتزال متأثرة بالزخارف التى استعملها النساجون فى نهاية العصر القبطى وفى فجر الاسلام « وأكثرها رسوم طيور أو حيوان أو أشكال آدمية صغيرة فى جامات بيضية الشكل متعددة الأضلاع أو موزعة توزيعاً غير منتظم . وفيها أشكال هندسية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة »[3] (أنظر اللوحة رقم ١١)

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١٠١

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٥

(٣) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٧

وقد رأينا كيف ظهرت الكتابة العربية على المنسوجات وتحدثنا عن قطع النسيج التى وصلت إلينا حاملة أسماء الخلفاء العباسيين والوزراء فى العصر الاخشيدى ، ونضيف هنا رسم قطعة منها عليها كتابة نقرأ منها « بشطا على يد فائز أمير المؤمنين أطال الله بقاءه سنة سبع وخمسين وثلثمائة . الخير مقبل إن شاء الله »[١] (أنظر اللوحة رقم ١٢) .

ومن المنسوجات التى انتشرت فى العصر الاخشيدى مجموعة تنسب إلى الفيوم فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، وقد جاء اسم هذا الاقليم فى كتابة على قطعة منها محفوظة فى دار الآثار العربية بالقاهرة (أنظر اللوحة رقم ١٣) وفى هذه القطعة شريط أحمر به رسوم جمال فى أسلوب تخطيطى بسيط دون مراعاة للنسب أو محاكاة للطبيعة . وتحت هذه الرسوم كتابة إما بيضاء أو بنية اللون وحروفها غريبة ولها ذاتية خاصة بها فى سيقانها من زخارف مدرجة الشكل وبما بين هذه السيقان من شتى الزخارف الصغيرة باللون الأصفر أو الأخضر ونص هذه الكتابة (سعا) دة ونعمة كاملة لصاحبه مما عمل فى طراز الخاصة بطمور (؟) من كورة الفيوم »[٢] .

وكان المصريون فى العصر الاخشيدى يستوردون من اليمن المنسوجات التى اشتهر بانتاجها هذا الإقليم والتى تمتاز بزخارفها المؤلفة من الخطوط المتعددة الألوان[٣] (أنظر اللوحة رقم ١٤) .

ونمت فى العصر الاخشيدى صناعة الخزف ذى البريق المعدنى ، ولكن زخارفه ظلت بدائية الى أن تم تطورها فى العصر الفاطمى[٤] .

أما صناعة الحفر فى الخشب فى العصر الاخشيدى فقد كانت ذيلا وتطوراً للاساليب المعروفة فى عهد الطولونيين أى للطراز العباسى عامة وامتازت بأن أساس زخارفها

---

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 5. p. 20 No. 1639

(٢) أنظر زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٣٧ — ١٣٩

(٣) C. J. Lamm : Cotton in Mediaeval Textiles of the Near East pp. 151-156, 235-238

(٤) أنظر زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ١٠٠ — ١٠٨ ، وزكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٤٧ وما بعدها ، وزكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣١٠

« حفر منحرف الجوانب » تخلق فيه الزخرفة من بضعة فروع وخطوط حلزونية تغطى الأرضية كلها (انظر اللوحة رقم ١٥) وقد تؤلف هذه الخطوط رسما تخطيطيا محوراً عن الطبيعة لحيوان أو طائر [١] (انظر اللوحة رقم ١٦) .

وكانت تصنع من الخشب ألواح صغيرة تحفر فيها كتابات لتسجيل ما يملكه الأفراد من العقار فى عبارات قانونية . ومن ذلك لوح مكسور فى دار الآثار العربية لا تزال عليه الكتابة الآتية : « بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله ويمن وسعادة

وعشرين سهما من جميع هذه الدار وحانوتيها (من كل حق)

هو لها داخل فيها ومن كل حق هو لها خارج منها (كل قليل)

وكثير هو لها من حقوقها الذى هى لها فيها .

بن هرون بن موسى البزاز ملكها من فضل . . . » [٢] (انظر اللوحة رقم ١٦)

---

(١) أنظر زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٤٨ و E. Pauty : Catalogue du Musée Arabe. Les Bois Sculptés Jusqu'à l'époque Ayyoubide pl. 18-22.

(٢) J. D. Weill : Catalogue du Musée Arabe. Les Bois à Epigraphes Jusqu'à l'Epoque Mamlouke pp. 60-61.